المجلس الأعلى للثقافة

الهجرة نحو المدن القديمة

الرواية الفائزة بالجائزة الأولى
لمسابقة نادى القصة لعام ١٩٨١

تأليف
حسين عيد

القاهرة
١٩٨٤

افتتاحية :

« يحكى في المدن القديمة .. أن بعض الزواحف حاولت غزو الهواء ، بأجنحتها المصنوعة من الجلد .. فتمكنت من الانزلاق في الهواء فحسب ..

لم تصبح هذه الزواحف طيورا ، لأنه لم يكن لها ريش ... هكذا كان مآلها الاندثار » ..

« تهاجر الطيور فى أعداد كبيرة من مكان الى مكان آخر فى العالم المتسع .. بحثا عن الطعـام .. فى ذات الوقت الذى تبنى فيه أعشاشها وتضع بيضها ، حتى تضمن لصغارها ما يكفيها من طعـام ..

وهى تعرف متى تبدأ رحلتهـا . والى أين تطير . وكيف تصل الى هناك ، مستخدمة « الشمس والقمر والنجوم » ..

ثم تبدأ رحلة العودة ثانيـة » ..

مقطع من كتاب « حياة الطير »

الجزء الأول : الحضـــور

فــوزى أســعد

ــ صباح الخــير ••

أى صباح هــذا ؟ !

تتسلل ذرات غبار الجو العاصف • تتسرب عبر النوافذ المغلقة ، من أسفل الأبواب •• الرياح ــ خارج المستشفى ــ تصفر • تزمجر • تنفض عن البلدة أتربتها المتراكمة • تهزها • تحمل اليها مزيدا من رمال الصحارى المجاورة •

رغم هذا •• زحام مرضى الفترة الصباحيــة لا ينتهى • صيحات أطفال من مختلف الأعمار تتصاعد من قاعة الانتظار • تتداخل • تتناغم • تعزف سيمفونية العذاب ••

ــ هل سيتحسن الطفل •• يا دكتور ؟ !

ينظر للمرأة الجالسة أمامه بقرف • يشعل سيجارة • يجذب نفسا عميقا منها • يشعر بلزوجة الغبار تتخلل شعيرات أنفه • يكاد يختنق • ينفث الدخان جرعة واحدة • يتكتل فى الأعماق ضيق هــائل ، عنيف ، مدمر •• ألعن اليوم الذى وطئت فيه قدماى هذه البلدة • ألعنه ألف مرة •• كل ما فيهــا يثيرنى •

يقتلنى .. تسألنى ببلادة .. هل سيتحسن الطفل ؟ ! .. كيف يتحسن ؟ ! .. كيف يفكر هؤلاء الناس ؟ .. لمـاذا يتصرفون على هذا النحو الرهيب ؟ !

يجذب نفسـا آخرا من السيجارة بحنق .. كان مولودا صغيرا .. ظل حبل السرة ينزف ثلاثة أيام متتالية .. ثلاثة أيام ينزف .. وأهله يتفرجون .. أخيرا عالجوه بالكى بالنار .. ليتهم ما عالجوه ..

يرقب حذاءه الملوث بالأتربـة . يعض اصبعه بقسوة .. عندما ساءت حـاله ، أحضروه الي المستشفى .. مـاذا أفعل له ؟ ! .. لست الها ! .. حولته الى غرفة العمليـات ، لنقل دم اليه ..

يطفىء السيجارة بعصبية . يسحقها .. اللعنة .. أحملق فى المرآة بشدة .. هل أفترسها ؟ !

يجرى ثانية الى غرفة العمليـات . يقترب من الصغير . آثار العلاج العربى ، واضحة على جسده الضعيف .. أى آلام عاناها ! .. كيف احتمل ؟ .. لكنى أرى الموت يحرس الوليد .. كيف أعالجه ؟ .. هل أعالج بشرا .. أم أعالج الموت ؟ !

كيف أجرؤ ؟ !

ينتفض الجسد الرقيق انتفاضة واهنة ، تعتصرنى .. انتهى الأمر . مات الطفل ..

يعود الى غرفة الفحص ساهما ، ساخطا . يشعل سيجارة جديدة بأنامل مرتعشة .. ما أشق معاشرة الموت .. خاصة مع الصغار ..

ــ هل سيتحسن الطفل .. يا دكتور ؟ !

يجذبنى منظر يدها الضخمة ، بأساورها الذهبية . يثيرنى سؤالها . يغيظنى .. هل ساهمت هذه اليد ، فى كى الصغير بالنـــار ؟ !

أضغط على أسنانى بقوة . أحاول التماســك .. انى أحترق .يفلت الزمام . أنفجر .. أثب . أندفع تلقائيا . بحركة مباغتة . أطفىء السيجارة فى يدها المنتفخة .. أحرقها .. أم أحرق عجزى ويأسى ؟ !

تنظر اليه المرأة مذهولة ، غير مصدقة ..

يصرخ فوزى فيها بعنف : هل تؤلم النار ؟ كيف تحملها الوليد اذن .. كيف تحملها ؟ !

تفيق المرأة . تنتبه . تهب صارخة . مولولة . تنهار فى النهاية بين جموع المحتشدين الذين اقتحموا غرفة الفحص .. بينما الطبيب يتمالك نفسه . يستكين . يشعل سيجارة أخرى . يتأمل ما يحدث بهدوء ..

« تتصـــادق الطيور اثنـــاء الغزل ، حتى يتعرف كل منها على الرفيق الذى يمكن ان يميل اليه ، ويشاركه حياته » !

فــكرى أحمــد

يدق فكرى أحمد جرس الباب . يحس ثقل ذراعه تحت وطـــأة حقيبة السفر الضخمة . يسقطها بجوار قدمه .. « ستفاجأ زوجته سامية لا محالة ، والابنة سوزى طبعا .. فهما لا يتوقعان عودتى اليوم » ..

يدق الجرس ثانية .. نائمتان لا محالة ..

تفتح الزوجة الباب ، بقايا النوم فى عينيها . تتلون المفاجأة على وجهها : أهلا فكرى .. حمد الله على سلامتك ..

ــ أهلا سامية

يأخذها بين ذراعيه . يشعر بدفء جسمها .. « احتضنته نادية بقوة . تعلقت به : هل سأراك ثانية ؟ !

هز رأســـه . انتحبت : كم أخاف الزمـــن .. ووعـــود الوداع » !

يفلتها من بين يديه • يجرجر حقيبته للداخـل • يغـلق البـاب ••

تلملم الزوجة شعرها : سأعد لك وجبة سريعة ••

أكلت بالطائرة •• خلال رحلة العودة من لندن

ــ سأعد بعض الفاكهة اذن •• حتى تغير ملابسك

يرتمى على كرسى بالمدخل • يشعر بالراحة : أين سوزى ؟

يأتى صوت الزوجة من داخل المطبخ : نائمة

ــ أحضرت لهـا بعض المـلابس •• ولعبتين •• ولك أيضـا ••

ــ شكرا •• دائما تتذكرنى ••

يتذكر •• « تأبطت نادية ذراعـه : سننتقل من محـل لآخر •• حتى نجد ما ترغبه من مشتريات •• لكن ••

ردد : لكن ؟ !

تطلعت اليه بعينين وادعتين : لا تخبر زوجى أننا تمشينا •• حتى لا يلومنى •• فعادة أرفض أى تمشية معه » !

ينهض • يدخل غرفة النوم •• السرير غير مرتب • يقترب منه • يبتسم • « حبيبتى نائمة » • ينحنى يقبل ابنته • يشـد

الغطاء على جسمها الصغير .. « همست نادية : لم أنجب من زوجي حتى الآن .. أمنيتي كانت .. أن يكون أبنائي منك وحدك ..

ـ لكنك منذ أكثر من عشر سنوات رفضت أن تتزوج !

ـ كنت غبية .. حريتي كانت تعني لي كل شيء .. وأنت ..تغار على بجنون .. فقررت أن نفترق .. رغم خطوبتنا ..

ـ كان أبي يعرف بخبرته الطويلة .. أن خطوبتنا لن تستمر .. ولم يكن راضيا عنها .. لذا حضر يومها متأخرا جدا .

ضحك ببراءة : عند المصور .. كنت كمن يجلس بجوار الشيطان ذاته » !

يخلع الجاكت . يفك أزرار القميص .. تدخل الزوجة : أصرت سوزى أن تنام معى .. بدلا من حجرتها ..

يجلس على حافة السرير . يشعر بالخدر يسرى فى جسده . يتثاءب ..

ـ على فكرة .. صديقك محمود عبد الكريم مريض .. قضى أسبوعا كاملا فى بيته .. مريضا .. من غير زوجته .. أو أولاده ..

ـ هل يعمل اليوم ••

ـ لا أدرى •• ربما ••

ـ أعطنى التليفون ••

تناوله التليفون •• محمود عبد الكريم مريض أيضا •• « قالت نادية : ستجرى لى عمليــة جراحيــة فى الكلى •• بعد سفرك بيومين ••

ـ المرة الأولى ؟ !

ـ أجريت من قبل أربعة عمليات فى الكلى والحالب ••

ـ كنت أتمنى أن أكون بجوارك •• لكن ظروف عملى واجازتى •• وأسرتى ••

ـ نعم •• أعرف » ••

يطلب محمود فى منزله •• رنين مستمر • لا أحد يرد ••• يطلب المستشفى : أهلا يا عم سالم •• الله يسلمك •• أريد أن أكلم دكتور محمــود عبد الكريم •• موجود •• حســنا •• سأنتظر ••

تساعده سامية على خلع قميصه • تقدم له البيجاما • ينظر اليها بامتنان •• يتأملها ، كمن يكتشفها •• ينساب شــعرها الأسود الفاحم على كتفيها بدلال • يبدو على جســدها دلائل

ترهل مبكر . لكن ساقيهـا المدملجتان ، لم تفقدا طلاوتهما المحببة .. قطعا كنت موفقـا فى اختيارها ! .. » قـال الأب : يا ابنى .. يجب أن تنسى ما فات .. وأن تفكر فى المستقبل .. يجب أن تتزوج .

فترة صمت : انى أرشح لك اثنتين .. يجب أن تختـار أيهمـا ..

أشعل الأب سيجارة : أمامك سامية .. زميلة أختك بكلية التجارة .. أنت تعرفها طبعا .. أما الأخرى فهى مها .. ابنـة صـديقى تاجر الأثاث .. وهى دكتورة مثلك .. وهى غنيـة أيضـا ..

ـ أنا لا يهمنى الغنى .. لكنك صدقت .. يجب أن أفكر فى المستقبل .. كما تقول ..

ـ ها قد عدنا ثانية .. لصراحتنا القديمة ..

جذب الأب نفسا من سيجارته ، نفث دخانها فى الهواء : فكر وقرر .. وان كنت أرى .. أن الزواج يحتـاج ستون فى المـائة عقل .. وأربعون فى المـائة عاطفة .. فالأسرة لا يجب أن تبنى على العاطفة وحدها ..

ـ لا أستطيع أن أفكر كما تفعل يا أبى .. ليست المسألة حسبة مالية .. نحلها هكذا ببساطة ..

ــ بل يجب أن تكون كذلك ..

ــ لا أظنني أستطيع ..

ــ فكر .. وقــرر

ــ أعتقد أني أفضل سامية .. تحدثت معها مرارا .. في البيت .. وخلال توصيلها لمنزلها ليلا .. بعد المذاكرة مع أختي .. وهي هادئــة .. عاقــلة .. متزنة .. وأنا أفتقد هــذه الصفات ..

لحظة تفكير : لكن يجب أن آخذ مهلة لأفكر فيها .. من هذه الزاوية الجديدة .. كزوجة للمستقبل ..

ــ لديك ما تحتاجه من وقت » ..

يسمع صوتا مألوفا على الجانب الآخر من التليفون . يتمتم فرحا : أهلا .. أهلا .. دكتور محمود .. أخيرا وجدتك ..

« ان بعض الطيور (المتفردة) تعيش فى عزلة تكاد تكون تامة .. فهى لا تتلاقى الا فى موسم التناسل » .

محمود عبد الكريم

(١)

« متى وصلت .. منذ نصف ساعة فقط .. وأخبرتك زوجتك .. (يميل محمود للأمام . يستند بكوعه الأيسر الى المكتب. يحملق فى نتيجة العام الرابضة بمواجهته .. السادس عشر من يوليو ١٩٧٥ . يطرق برأسه) .. نعم .. نعم .. هذا صحيح .. (يخرج منديلا يمسح به بعض حبات العرق التى نبتت على جبهته) أنا لا أعرف شيئا حتى الآن .. لم يخبرنى أحد .. (يريح سماعة التليفون فى يده اليسرى . تدخل حجرة الكشف عجوز يرافقها زوجها ، كما يبدو من هيئته . يشير لهما الطبيب أن يجلسا . يتحدث بالانجليزية) كنت طوال الأسبوع الماضى فى اجازة ، بناء على علاج دكتور هنرى .. ربما علاج بالخارج .. لا .. لا أظن ذلك . لكن غدا فى العاشرة كونصلتو .. نعم . فى العاشرة صباحا .. (يخطط بقلمه على أحد تذاكر المستشفى الطبية . يرسم رقم ٤١ . يحيطه بدائرة . يعود متحدثا

بالعربية) حسنا . سأراك طبعا بالمنزل .. متأخرا بعد المستشفى .. سأمر عليك طبعا .. مع السلامة »

يتنهد محمود . يكتشف عينا العجوز شاخصتين اليه . تظلل شفتيه ابتسامة باهتة . يسأل ببساطة : بماذا تشعرين يا أمى ؟ .. هه .. احكى لى ..

يلتفت ثانية لنتيجة العام .. بعد أربعة أيام يكمل عامه الحادى والأربعين .. هل عمر طويلا ؟ ! .. يبذل جهدا جبارا . يركز تفكيره . ينصت الى السيدة تشكو : آلام شديدة بالكتف الأيمن خاصة .. آلام مستمرة ..

يومىء الطبيب اليها مشجعا . تستمر : وليست لى أى شهية لطعام ..

يرنو اليها متسائلا : بماذا تشعرين أيضا ؟

تتطلع السيدة اليه : الأيام الأخيرة نومى فيها متقطع ..

ــ هل الهضم عندك منتظم .. أم تعانين من اضطرابات بالجهاز الهضمى ..

ــ يصيبنى أحيانا عسر الهضم .. فى بعض الأيام فقط ..

يشير الطبيب الى سرير الفحص : تفضلى .. هنا

يتدخل الزوج : نريد أن نطمئن يا دكتور .. أطال الله عمرك ..

بعد أيام يبدأ عامه الثانى والأربعين .. قال العجوز الهندى : ستعمر طويلا .. سترى بلدانا كثيرة .. ستتزوج ..

يتحرك الطبيب نحو سرير الفحص : ان شاء الله خير .. ان شاء الله

يتناول الطبيب ذراع المريضة . يثنيه . ينهمك فى فحص المريضة بهدوء وثقة .. يطارده صوت الهندى ، الوادع : ستعمر طويلا .. سترى بلدانا كثيرة .. ستتزوج ثانية .. ستنجب أولادا ثلاثة !!

(٢)

يصعد دكتور محمود الى الطابق العلوى من المستشفى . ينتابه دوار . يتماسك . يستند الى الدرابزين .. يكاد يتعثر ببعض السلمات القديمة المتآكلة . ينتبه . يتلافاها بحذر .. هذه السلمات المتآكلة .. لم أكتشفها من قبل أبدا . كأنى أراها للمرة الأولى .. قطعا كانت موجودة . لكننى لم أكن أنظر كما يجب . لم أكن أهتم .. كنت أصعد . أندفع . أطير ــ متكئا على العمليات الجراحية التى أنجزتها ــ الى اللحظات التالية . الى الزمن القادم . المترجم بأهداف متجددة ، لا تنتهى أبدا ..

ـ مساء الخير يا دكتور

يلتفت : أهلا دكتور فوزى ..

ـ حمدا لله .. لرجوعك العمل ..

يتجاوزه الدكتور محمود : الحمد لله .. الحمد لله ..

يتذكر ما سمعه من الزمـلاء عن حادثة احراق الوطنيـة بسيجارته فى الصباح .. كانوا يصفون فـوزى بالمجنون .. لأحواله الشاذة فى نظرهم .. مثل تواجده بالمستشفى ـ كالآن ـ فى غير وردية عمله .. فاذا سألوه تبريرا . يجيب فورا : « قد يحتاجنى مريض » .. فترتفع التعليقات ، خلف ظهره « المجنون .. يصلح الكون » !!

يلقى محمود التحية على غرفة الممرضات . تتقدمه الممرضة احسان الى عنبر الجراحة .

تميل احسان ناحيته : الولد الذى أجريت له عملية بتر بعد الظهر .. أفاق من البنج .. لكنه يتألم ..

ـ سأراه حـالا ..

نجى هـذا الطفل من حادث تصـادم سيارة ، ضـاع فيه أبيه .. أحضرته عربة اسعاف الى الطوارىء .. كتلة مختلطة من دماء وملابس ممزقة ولحم وعظام .. بعد الفحص .. قررت

بضرورة بتر ساقيه ، بعد موافقة أهـله •• ثم تجبيس كسور ذراعيه وصدره ••

يدخل عنبر الجراحة •• حجرة واسعة ، تمتد ككهف • اضاءة باهتة • يتناثر فيها عدد من الأسرة •• يسقط نظره على الطفل • آهات ألم تنبعث من شفتيه • يقترب الطبيب منه • يتنـاول سـجل حالته من الممرضـة •• يقع بصره على عينى الصغير ، الهاربتين منه خوفا •• يقول للممرضة : درجات الحرارة مطمئنة •• يأخذ الآن هـذه الحقنة •• ستساعده على النوم ••

يغادر عنبر الجراحة •• نفس النظرات المولية ، المرعوبة •• أحس وجودها عند ابنى شكرى ، حال وجودى بالمنزل •• أراه دائما لائذا بحضن أمه •• كانت هـذه نقطة اختلاف مع زوجتى •• تربى الولدين كالبنات •• تسيء اليهما لا محالة •

يسير فى الممر الطويل ، الموصل للسلم • يشده حنين الى غرفة العمليات • يلج بابها •• عندما دخلت مشرحة كلية الطب للمرة الأولى •• ارتعشت •• كانت جثث الموتى ، مسجاة هناك ، على طاولات حجرية مستطيلة •• رائحة الحمض المطهر تغرق المكان •• فجعنى المشهد • أحدث شرخا داخلى •• هـذا هو الانسان ، الكامن فى كل منا •• مجردا ، عاريا ، لا يملك من أمر نفسه شـيئا • انكشف سـتره ، حتى عورته •• مددوه

جاهزا •• ليسكون أداة تمرين لنا •• نحن أطباء المستقبل •• كدت أتقيأ •• عافت نفسى الطعام بقية اليوم •• لكن المشهد ، ظل جريحا بداخلى لفترة طويلة ••

يضىء النور • يتقدم خطوتين •• كنت أرغب ــ دائما ــ أن أكون طبيب أشعة وتحاليل •• حتى أتفرغ للقراءة والكتابة •• لكن فترة تجنيدى بالجيش كادت أن تدمرنى •• فلم يكن أمامى الا أن انتزع وضعى عنوة •• كنت أعرف امتياز الطبيب ، لذا حصلت على دبلوم جراحة عام ٦٥ ، انتقلت بعده لأكثر من مستشفى •• لأستقر فى النهاية فى مستشفى ميدان •• متمتعا بالراحة ••

ــ حضرتك تأمر بأى شىء •• يا دكتور

يستدير للممرضة • يهز رأسه نفيا • يطفىء النور • يغلق الباب •• قال العجوز الهندى : أنقذت حياتى يا دكتور •• لولا وجودك ، ربما •• (ابتسم) اعطنى يدك •• سأقرأ لك الكف •• ستعمر طويلا •• سترى بلدانا كثيرة ••

يمشى فى الممر الطويل مفكرا • يطرق سمعه وقع خطواته وسط الهدوء •• قال دكتور هنرى : لا أستطيع أن أعلل سبب آلام الرأس المفاجئة •• لكننى أنصحك بالراحة •• أسبوع

مثـلا .. وسأكتب لك بعض المسـكنات .. تستعملهـا عند اللزوم ..

يمسك درابزين السلم . يمد ساقه ليهبط .. تنفتح أمامه هوة عميقة .يتشبث بالحافة . يترنح . يسقط . ينقلب . يفقد السيطرة . يستغيث . لا يسمع صوتا .. تتلاعب به دوامات ترابية على المنحدر . تكوره . تدحرجه . يرتطم بحافة أخرى . يقبض على بعض النتوءات بضراوة . قوة جذب رهيبة تشـده لأسفل . يقف بصعوبة .. يكتشف بعض الألواح الخشبية تمتد فوق الهوة .. يحـاول أن يعبرها . يصيبه الدوار . يشـل حركته . يتلوى . ينهار . يمسك بعمود قريب ..

ـ أحدث شيء .. يا دكتور ؟ !

يحملق فى المتحدث مرعوبا . يتعرف فيه دكتور فـوزى أسعد . يتنفس بعمق : لا .. لا .. مجرد دوار بسيط

ـ أترغب أن أوصلك للمنزل ..

ـ لا .. لا .. شكرا

يهبط السلالم بحذر شديد .. أين أنت يا أبى ؟ ! .. ترى هل يفـكر فى الآن ؟ .. هـل يتذكرنى ؟ ! .. كنا معا

نلعب لعبة جميــلة • نكررها بين الحين والحين •• كان يفكر فى موضوع ، وأفكر أنا فى آخر •• ثم نكتشف أن كلانا نفكر فى نفس الموضوع ••

يعبر الردهة الواسعة ، الموصلة لباب المستشفى ببطء •• قال الأب : لمــاذا تسافر الى هــذه البلدة البعيدة ؟ ! •• أنا أعرف ألا جدوى لكلماتى ، مع اصرارك المتوارث •• لكنى لا أدرى •• هل سنلتقى ثانية ؟ !

يغادر المستشفى • يحييه الحــارس • يقترب من موقف انتظار السيارات • يفتح باب سيارته • يجلس •• قال الوالد ، فى نهاية أول زيارة له بعد الزواج : زوجتك تحبــك •• وهى بنت ناس •• عيبها الوحيد أنها عصبية •• وأنت لا تصلح لك العصبية •• لأنك فلاح صريح ••

يسند ظهره للمقعد • يتسلل ضوء القمر الباهت الى مقدمة سيارته وسط الظــلام • تلسعه نسمة هــواء باردة • تفجعه وحدته •• قال الأب : لمــاذا تسافر •• اذا كانت العيادة •• تدر لك دخلا هائلا ؟ ! •• أنا لا أفهم ماذا تريد •

يحك جبهته بيده • يقرر فجأة أن يقطع الطريق سيرا على قدميه •• الى منزل الدكتور فكرى أحمد ••

يقع المستشفى فى بقعة معزولة خـارج المدينة . يصلهما طريق طويل ، تم تمهيده وسط الصحراء .. بدأت حركة التعمير تزحف ببطء ، بكثافة من ناحية المدينة ، ثم تتضاءل تدريجيا ، لتختفى تماما ، قبل مسافة كيلو مترين من المستشفى تقريبا ..

يتوقف على جانب الطريق . يفتح عينيه . تنبثق فجأة من أغوار الظلام شجرة ضخمة ، عملاقة ، مصلوبة فى الأرض ، كأنها عجوز حنون ترعى ما حولها .. تبدأ الذكريات تتجمع برقة . تنبعث . تنساب بهدوء ..

« قال الأب ثائرا : يا ابنى .. الى متى تظـل تهرب .. أو ترتحل بين البلاد ..

رد متحمسا : اذا لم أكون نفسى وأنا شـاب .. فمتى سأفعل ؟ !

ـ ومرض زوجتك .. وانهيارها فى الكونغو ..

قـال الطبيب مفـكرا : أوافقك يا أبى .. ان الغربـة رهيبـة .. لا يحتملها كل الناس .. لكن كل البـلاد ليست سواء .. والانسان يتعلم ..

لحظة صمت : لا أنس جملتك المأثورة •• « ان لم تقرأ •• وتتعلم •• فأنت بقرة » !

تدخلت الزوجة ، مخففة من حدة المناقشة : كان انهيارى فرصة •• كى أزور لبنان •• وأستمتع بجمالها •• كمن لم يسمع الزوجة : أتظننى لم أكن أثور فى الكونغو ؟ ! •• عندما كنت أتضايق جدا •• لا أستطيع عندئذ أن أعبر عن نفسى بالانجليزية •• فأشتم وألعن بالعربية ، وسط دهشة الراهبات •• وفى النهاية أرتاح •• وأعبر عن نفسى بهدوء •• بالانجليزية ••

ـ يجب أن ••

مقاطعا الأب : ان عزائى الوحيد •• هو وعيى بما أفعل •• أنت تعرف •• المهم أن أقنع نفسى •• بعدها أكتشف أن هـذا فيه مصلحتى » ••

ينتبه لزئير سيارة بجواره • يقفز • يبتعد تلقائيا • يدفن عينيه فى الليل القاتم •• « فى ليل الكونغو أمام عتبة الدار ، وقفت استنشقت طزاجة الغابات • تجرعت عطر زهورها الفواح• دغدغ حواسى صمت تجرحه حشرجة الحشرات •• كانت امرأتى بالداخل تعانى آلام حمل مزعج • تلفها ستائر كثيفة خوفا من لدغات الناموس •• فكرت لوهلة أن أريحها من هذا الحمل ••

خاصة لسابق معاناتها •• لكن ثمة شيء يتغير • ينحدر الى متسللا بين النجوم ، الى الأرض •• تنفست بعنف براءة المخلوقات • اقتربت من جوهرها بحذر • وصلنى • تسرب الى أعماقى ، بشكل غامض ، يقينى ، مؤكد •• أن الوليد سيكون ولدا • حمدت الله •• حسمت أمرى •• سأتركه حتى يراه أبى •• كان يحب أن يرى أبنائى خاصة » ••

يلج محمود بداية منطقة العمران •• ينبح كلب • يتصايح بعض الصبية •• « جذبنى ابن العم من يدى : لماذا تجلس دائما فى البيت •• يجب أن تجرى •• أن تلعب معنا ••

— والواجبات المدرسية ؟ أ

ضحك ببساطة : سنؤديها •• طبعا سنؤديها » ••

تبهره أنوار سيارة قادمة • يغمض عينيه •• قال العجوز الهندى : ستعمر طويلا ••

يجنح محمود الى أقصى اليمين ، فحركة السيارات عنيفة ، صاخبة ، لا تهدأ •• الطريق مقفر من المارة • قابع يتلوى فى الظلام •• ما أشبهه بمجرى حياتى المتعرج •• لكن •• هل ثمة نور سيتألق فى نهايتها ؟ !

يهز الطبيب رأسه •• قال دكتور هنرى : لا تطلب منى

المستحيل .. لست واثقـا من أى شىء .. لمـاذا تشـك فى كلامى ؟ !

تتباطأ خطواته . يضرب الأرض بقدمه .. قال الزميل رامز سلطان : لا أعرف أحدا فى بلدى الآن .. علاقاتنا معدومة .. كانوا يكتبون لى أخبار المرض والموت والفقر العائلى .. فهل أحتاج لمزيد من الهموم ؟ !

تتناثر أضواء كشافات السيارات على الرمال . تشـكل . تبعث أشباحا شتى .. تتبعه . تقترب منه . تحيطه . تحاصره .. قال أحد المرضى : أنت تنصحنى بالعودة لمصر ، كى أرتاح .. ما جدوى الراحة .. اذا كنت سأموت فى النهاية ؟ !

يمسح البيوت الساكنـة بنظرات قلقة ، متوترة . يرين الصمت على كل الأنحاء ..

« هـل سأموت » ؟ !

قال الأب : ماتت أمك .. خلال سفرك بالكونغو ..

ـ لمـاذا لم ترسل لى ؟

ـ ما جدوى حضورك ؟

ـ أراهـا ..

ـ اتق الله .. ماتت .. أمر الله »

ثمة خواء رهيب يحتويه .. تتباعد البيوت . تتطاير . تختفى . تنفتح فى الأرض هوة عميقة . تتسع . تتناثر أحشاؤها .. تتمخض عن فراغ موحش . ترتفع السماء . تغيب . تندثر النجوم . يخبو الضياء . يعم الظلام ..

« هـل سأموت » ؟ !

تتزلزل الأرض . تنفجر الحمم . ينبعث الدم سائلا لزجا ؛ قانيا . تلفظه الأرض من باطنها . تنبت فيه آلاف الهياكل العظمية . تتكاتف . تتصارع . تتراقص . تغدو . تجىء .. تتحرك لاهية ، وسط فراغ بعمق الكون .. فجأة تنهار الهياكل العظمية . تتهاوى . تتحطم . تتحول الى ذرات ترابية تعبث بها رياح تعصف بكل شىء ..

« هـل سأموت » ؟ !

الجزء الثانى : تسلية

(١)

التفاهات تسيطر على سطح البحيرة الآسن فى البلدة الصغيرة .. تلوك الألسن الأحداث التافهة . تطيرها تتبادلها ، فى المجالس والطرقات . تحورها . تضيف اليها .. لتتعملق فى النهاية . كاكتشافات خطيرة . فريدة ، وسط الجو الراكد ..

يجذب أكرم خالد ، فوزى أسعد من ذراعه . ضاحكا ببساطة : تريث قليلا .. لماذا تهرول .. كأنك تهرب من المستشفى .. لننتظر رامز .

يتوقف فوزى .. أهرب .. لماذا أهرب ؟ ! .. سيألنى الكثيرون تبريرا لما فعلت .. أمسكت نظرات أبناء البلدة المستفسرة . فضحت عيونهم رغبتهم الخبيثة فى ادانتى . فى سماع اعترافات مفعمة بالمرارة والأسى .. تصلح زادا لحوار ليلة أو ليلتين .. لكننى لم أتكلم . أشرت اليه . الى غرفة العمليات . فى صمت .. لينظروا . ليحترقوا ، لو كانوا يملكون ذرة احساس . ليتعلموا . بعقولهم المغلقة .. أما أنا .. فلو تكرر ما حدث ثانية .. لن أتردد فى احراقها .. بل قد أرتكب شيئا أفظع ..

ــ لدى حالة مستعجلة •• سألحق بكما ، فى نادى شركة (كو) الأمريكية • كما اعتدنا ••

يعود رامز سلطان الى المستشفى • يتحركان • بشائر الغروب تملأ المكان • يفتح أكرم خالد سيارته • يركبان • تبرز من باب المستشفى طفلة •• ربما فى السادسة من عمرها ، تمسك يد أمها • يغادران المستشفى • يتطاير شعرها الفاحم بفعل الريح • تحاول الاحاطة به وامساكه • تفشل محاولتها « كانت السيارة تندفع الى مطار القاهرة الدولى • كانت زوجتى ــ معى ــ على المقعد الخلفى • بيننا ابنة أختى الصغيرة ناهد • طير الهواء شعرها • حاولت الامساك به دون جدوى •• سألتنى : لما تسافر يا خالى ؟ !

ــ للعمل ••

اقتربت أكثر : اذا كان للعمل •• لماذا لا تنهى العمل •• فى يوم واحد •• وتعود ؟ !

احتضنتها • قبلتها : لكن العمل كثير •• لا يمكن أن •• بوجه باش : أريدك أن تكون معى » •

ــ يجب أن تتعامل بهدوء مع المواطنين هنا •• والا ستكتسب عداوة لا مبرر لها ••

يشيح بوجهه بعيدا عن أكرم خالد . يفتح نافذة السيارة المجاورة . يدفن عينيه فى ظلام الصحراء . استنشق الهواء الجاف ، البارد بعمق : الا الاطفال .. أحتمل أى شىء ، فى هذا الوجود .. أما عذاب الاطفال .. لا أستطيع .. أفقد أعصابى فورا ..

ـ ما فائدة أن تثور .. لن تكسب الا انهيار أعصابك ..

ـ ألا ترى .. اننى أختنق فى هذه البلدة .. أشعر دائما أننى سجين .. مكتوب عليه أن يعانى باستمرار .. لكننى أحتمل لحدود معينة .. أما الأطفال .. اللعنة .. لا أستطيع ..

ـ لن تغير شيئا .. لن تستطيع .. قواعد اللعبة هنا .. تدعونا .. أن نلعب وفق الامكانيات المتاحة ..

يغير فوزى من جلسته . يعتدل : لقد سألت نفسى آلاف المرات .. لماذا اخترت أن أكون أخصائى أطفال .. لماذا حصلت على دبلوم أطفال ..

لحظة صمت . كمن يعترف : صدقنى .. هل لأنى كنت محروما من الاطفال .. وجدت راحتى فى هذا العمل .. ربما .. لا أدرى ..

يلتفت اليه أكرم خالد التفاتة قصيرة : اسمع .. سأحكى

لك شيئا •• كان ترتيبى متقدما فى نهائى طب •• كنت أريد أن أكون نائبا •• لكنهم وزعونى على احدى قرى الريف •• ماذا أفعــل فى الريف ؟ •• كــان الطبيب المقيم متفرغــا لأعمــاله الخاصة •• زيارات كشف خاصة •• جلسات تدليك بواسير •• التجارة فى الماشية •• ماذا أفعل ــ أنا ــ فى الريف •• كنت أذهب يومى السبت والأحد فقط من كل أســبوع •• وأهرب بقيــة الأيام للقاهرة ••

يشرخ صوت محرك السيارة السكون المخيم • يستطرد أكرم خالد ببساطة : نحن نعرف ما يحتاجه الريف فعلا •• أطباء متخصصين فى الأمراض المتوطنة • كالبلهارســيا والانكلستوما وفقر الدم وسوء التغذية •• لكن هذه ، كما تعرف •• لا تعطى ايرادات خاصة • لذلك لا يمارسها الأطباء ••

يهز فــوزى أســعد رأســه موفقا •• يقول أكرم خالد باقتضاب : قلت يومها لنفسى •• أننى لن أكون نسخة مكررة من الطبيب المقيم أبدا •• لكنى تعلمت من هــذه الفترة •• قاعدتى الذهبية •• اللعب بالمتاح !!

يحــل الصمت • يصفو الجــو • يسترخى فوزى على كرسيه • تنساب الذكريات برقة •• « جذبته ناهد من ذراعه : هل السماء •• بعيدة جدا •• يا خالو ؟ !

هز رأسه بابتسامة مشرقة • عادت تسأل : هل يمكن أن نسافر للقمر ؟ !

ـ نعم •• بالصاروخ ••

ـ اذا كان الوصـــول للقمر بالصاروخ •• فهو يصـــل للســماء

ـ طبعـــا ••

التصقت به : أريد أن أسافر للقمر ••

احتضنها : يجب أن تطيعى أمك يا شقية •• ولا تضـــايقى أختيك أثناء المذاكرة •

قبلته • قبلته بشوق •• توقفت ، كمن تذكرت فجـــأة : لا تنس علبة ألوانى •• والفساتين ••

تمتمت الزوجة : نحن لا ننساك أبدا •• يا ناهد » ••

تأخذ الســـيارة لها مكانا بجوار ســـور النادى ، بجوار سيارتين أخريين • تتوقف • يهبط فوزى • يغلق أكرم خـــالد السيارة • يلحق به : هيا لندخل الجنة •• وسط قيظ حياتنـــا اليومى ••

يحيى أكرم حارس البوابة بالانجليزيـــة • يرد الحـــارس التحية • يعبران المدخل • يمشيان فى ممر طويل وسط النجيل

الأخضر والأنوار الغير مباشرة . يتنسم فوزى أريج الأزهـار اليانعة .. « كنت أتنزه مع المحبوبة ناهد فى حديقة الحيوانات .. كنت أستمتع بانطلاقها على سجيتها .. كزهرة برية ، تبزغ فجأة وسط الحشائش والأزهار والأشجار الموغلة فى القدم .. توقفنا أمام قفص الدب .. فيه مكان خال على السور أمامه . أطلقت يدها لتقف به .. فجأة انبثق رجل من أين ؟ لا أدرى .. تقدم . هجم . كاد أن يوقع الصغيرة . احتل المكان الشاغر . وقف حائـلا أمام الصغيرة الحـائرة .. تماسكت . حملتها . أجلستها على كتفى لتشاهد الدب .. كنت أكظم غيظى » .

يجلسان على مائدة بجوار حمام السباحة . ينهض أكرم . يحضر زجاجتى مثلجات طبقا لنظام اخدم نفســك .. يضعهما على المـائدة : ما أجمل حيـاة العزوبية .. خـلال فترة سفر الزوجة للقاهرة ..

ـ فى الغربة .. العزوبية .. تعنى الوحدة ..

ـ اننا نعانى .. لأننا لا نجد المكان المناسب فى غربتنا ..

يصمت أكرم خالد لحظة كعادته : أنظر الى هؤلاء .. ان مسألة تكوين مستعمرات خاصة بالمغتربين .. ضرورة اجتماعية أنت داخل المستعمرة السكنية .. كأنك فى وطنـك .. لست

مضطرا أن تعيش وفــق قواعد المجتمع الجديــد •• الذى وفدت اليه ••

ـ والمصريون ؟ !

ـ نحن لم نعتد الغربة لذلك لم نصنعها بعد •• الا فى بعض مناطق البحث عن البترول •• المعزولة وسط الصحراء ••

تنعكس ظلال الأضواء • تتلألأ • تتأرجح • تتألق على صفحــة المــاء الهادىء بحمام السباحــة •• ينتشر عدد من الأجانب • يتحلقون حــوله •• يتمدد بعضــهم على كراسى الشاطىء ، القماشية ، الطويلة • يرتدون البنطال القصــير • وأقمصة مفتوحة ، أو عرايا الصدور •• بينما يلتئم شمل الآخرين ثــلاث موائد • يتبادلون أحاديث هادئــة • يتناولون البيرة بتلذذ ••

يرقبهم فوزى أسعد : اذا كنا نحن هنا •• لزيادة دخلنا •• فالى ماذا يسعى هؤلاء •• أبناء البلاد المتحضرة ؟ !

ـ يصنفهم صديقنا محمود عبد الكريم فئتين أو نوعين •• نوع يترك أولاده فى بلده •• أو يكون مطلقا • يأتى ليعيش فترة محدودة •• ليشارك فى بعض مشاريع وطنه •• نوع آخر يأتى مع أسرته •• ويدع أولاده فى التعليم هنا •• وهــؤلاء لا مخرج لهم ••

يقاطعه فوزى : وفئة أخرى من الشـباب •• تهرب من الوطن •• لأنه لا يحقق لهم طموحهم فى الدخل •• أو الوضع الاجتماعى المطلوب ••

يبتسم أكرم خالد : وأنا أضيف نوعا آخر •• الباحثين عن المتعة الصعبة ••

يشرب جرعتين من المشروب المثلج : أنظر •• الى الشاب الطويل •• الجـالس على ناصية حمـام السباحة •• انه ••

يندهش فوزى : مستحيل ؟ !

ــ أنت تعرف علاقـاتى هنـا مع مديـر المستعمرة •• والعاملين •• يستدعونى دائما •• عند الضرورة •• فى احـدى المرات اكتشفت هذا الشخص ••

تعبر بجوارهما فتاتان • يعاود أكرم : حتى العلاقات الجنسية هنا • تتم ببساطة •• فى مساكنهم التى نراها •• وراء حمـام السباحـة ••

يستشعر انطواء فوزى : انهم يمارسون هنا حياتهم •• تماما كأنهم فى بلادهم •• بسهولة ويسر •• دون تعقيدات ••

« وجدها •• عند عودته من الجامعة ، ذات مساء •• فتاة سمراء ، نحيلة ، ذات دلال •• تضحك • تقهقه على سجيتها مع

زملائه بالشقة •• تردد • وقف مذهولا •• لم ير أبدا فتـاة بكل هذا الانطلاق •• اقترب منه أحد الزملاء • دعاه للاشتراك فى السهرة •• حملق فيه مبهوتا •• رأى الأرض • السماء • الزرع • القرية •• الصـلاة بانتظام •• الصوم • أوامر الأب المشـدد فى أمور الدين •• بالنسبة له الحـلال بين ، والحرام بين •• ضايقه تصرف الزميل •• كيف جرؤ على دعوته ؟ ! •• كيف » ؟ !

ـ هكذا يقبلون على الحياة •• يعيشون •• دون اكتراث

« نصحهم بالحسنى •• قـالوا : لا تطعنـا •• يكفينـا ما نعانيـه ••

لمـا رأى اصرارهم •• تجنبهم •• تهرب منهم • بحث عن سكن مشترك آخر •• فهدفه واضح •• الدراسة والنجاح • ولا شيء عداهما أبدا » ••

يحول فـوزى مجرى الحـديث : أتظن حـالة محمود عبد الكريم •• خطيرة ؟ !

ـ الأعراض التى يشكو منها كثيرة •• تحتمل أكثر من تأويل ••

يحملق فى حمـام السباحـة • يتذكر المرات القليلة التى حضر فيها محمود معهم •• كان دائمـا يقول : أحب حمامات

السباحة .. لكنى لا أحب الاستحمــام فى البحر .. رغم أنى أتمشى ساعات طويلة أمامه ..

يتثاءب أكرم خالد : لكنه عاد اليوم الى العمل ..

ـ قابلته صدفة .. على سلم المستشفى ..

ـ لنزره الليلة .. حتى نطمئن عليه ..

ـ سيكون فى منزل فكرى .. بعد العمل ..

يسقط عليهما ظل رامز سلطان بجسده الضخم . يقف على رأس المـــائدة : السلام عليكم ..

ـ السلام عليكم ..

يرفع يده ببطء : من يريد أن يتحدانى .. فى تنس الطاولة .. فليتقدم ..

يبتسم أكرم خالد بجنون . ينظر ناحية فكرى : مسكين .. لا يعرف ما ينتظره !!

ينهض كلاهما . يتجرع فوزى ما بقى فى زجاجته بسرعة . يحمل أكرم خالد زجاجته . يتحركون . يمشون ببطء ناحيـــة القاعة الداخلية من النادى .. حيث وسائل التسلية متاحة ..

(٢)

« يبـدأ الغزل عند الطيور باستعراض الذكر لألوانه الزاهية أمام الاناث .. وهو يرقص ويتبختر امامها » .

يدخل الزملاء الثلاثة من أحد أبواب الألمنيوم ، المنزلقة ، التى تفتح على القاعة الداخلية للنادى . يغلق فوزى البـاب وراءهم ، حفاظا على تكييف الهواء داخل القاعة الواسعة .. يتكون المكان من عدة أقسام متداخـلة . من الركن البعيد . يعرض بجهاز الفيديو كاسيت أحد أفلام الصـور المتحركة . يجلس أمامه بعض الأجانب من الجنسـين . يتجاذبون أطراف الحديث . يستعيدون ذكرياتهم المـاضية . يضحكون .. فى الركن المقابل ، يتناثر عدد من الأرائك ، ذات الوسائد المريحة . يجاورها باب خشبى . تعلوه لوحة مكتوب عليها « المكتبة » يتمدد شخص واحـد على أريكة باسترخاء ويتصفح احـدى الجرائد اليومية .. يمتد كاونتر خشبى ، فى النصف المجـاور . تقدم من خلاله بعض المشروبات والمأكولات الخفيفة ، توجد أمامه مائدة تنس طـاولة خضراء . وبعض الألعاب اليدويـة المسلية ..

يتوجه رامز سلطان الى الكاونتر • يطلب زجاجة مثلجات • يرقب فتاة تشرب بعض البيرة • يدفع ثمن الزجاجة •• يتناول جرعة منها • يتجه ناحيـة مائدة تنس الطاولة : هيـا •• الى المعـركة !

ينتظر • يقف آكرم على رأس المـائدة • يضرب بمضربـه الهواء • يختبر مدى كفاءته •• وفى الجـوار يجلس فـوزى يرقبهما • يحول رامز الزجاجة الى يده اليسرى • يمسك المضرب بيده اليمنى ••« يجب أن أستأثر باهتمام الفتـاة الجميلة •• لتكن شاهدا على براعة لم يسبق أن رأتها • مبهورة بالمصرى الأسمر حتى النخاع ، عندما يصول ويجول أمام مائـدة تنس الطاولة بيد واحدة ، قوية ، عنيفة » ••

يستطيل • ينحنى رامز للأمام • يأخذ الكرة • يستقيم عوده • يتجرع رشفة أخرى • ينظر الى الفتاة من طرف خفى • « كل ما فيها أثر • مثير •• البنطال الضيق • البلوزة الشفافة • جسـدها البض • شـعرها القصـير •• عيناها الحالمتان •• وهل أطمع وسط الهجير بالمزيد » ؟ !

يبدأ اللعب •• « لتكن ضربات ارسالى مدمرة •• لا تصد ولا ترد •• لتكن تحركاتى رشـيقة رغم جسـدى الضخم •• فلو حظيت باعجابها •• قد تبدأ اللعبة الحقيقية •• اللعنة •• لا أحتمل الحياة وحيدا •• !

تطيش احـدى اللعبـات • تقفز الكرة • تختبىء تحت الكراسى • يعود بها أكرم خالد • يبتسم • يغمز لرأمز بعينه :

هل تلعب مباراة العمر •• معى •• أم لها ؟ !

يبتلع جرعة جديدة : العب •• وسنرى ••

التفاتة عابرة للفتاة •• « قالت الزوجة بأسى : الى متى يطول فراقنا •• هل من نهاية قريبة ؟ !

ــ يجب أن ننتظر •• سيفرجها الله ••

ــ مضت ثلاث سنوات كاملة منذ سفرك •• فالى متى ؟

ــ ماذا بيدى أن أفعل •• المسئولون بالمجلس المحـلى لا يوافقون على الأجازة •• لمرافقتى ••

تأوهت الزوجـة : متاعب العمل •• والبيت •• وتربيـة أولادك •• أتحملها وحدى » ••

تتدحرج الكرة على الأرض • تنزوى فى الركن قريبا منه • يجلس القرفصاء • يمد يده اليمنى • يملأ عينيه من الفتاة ••

قالت زوجته : لا تطالبنى الآن بترك العمل •• فمنه عشنا خلال سنوات دراستك بكليـة الطب •• لنواجـه الواقع •• ولا ندفن رأسينا فى الرمال ••

ــ لكن يجب ..

ــ لا فائدة .. أنت تعرف أنى لن أفعل » ..

ينهض . يرسل ضربة ارســال عنيفة .. « قالت الأم فى رسالة أخيه .. ننتظر رسائلك على شوق .. القرية كلها تسأل عنك .. نحن بخير .. لكننا ننتظر أخبارك » ..

تتسم ألعابه بالعنف . بالقسوة .. « قال أخيه فى حاشية أخيرة برسالته : أمك مريضة .. لكنها ألحت على كثيرا .. كى لا أخبرك » ..

تسقط الكرة وراءه . يلتقطها . يلتفت ناحية الكاونتر .. تنهمك الفتاة فى حوار ضاحك مع العامل وراءه ..

يرســل رامز رمية ارســال قوية . . ردها أكرم ثانيــة بسرعة .. « أنبته الزوجة : هل كتب على الانتظار الى الأبد » ..

يرفع يده . يرد الضربة . تنجح محاولته . لكنــه يفقد توازنه . تطير زجاجــة المثلجــات من يده . تسقط . ترتطم بالأرض . تتفتت . تتحول الى شظايا . تفترش دائرة واسعة . ينساب . يغطى السائل المثلج مساحات متقاطعة منها ..

يقف رامز مبهوتا . تشرئب الأعنــاق اليه . تحمــلق فيه الفتاة لوهلة بلا مبالاة . يتقدم ناحيته عامل الكاونتر يعتذر رامز

عما حدث . يكرر اعتذاره .. كان يعتذر عن أشــلاء حياته . التى ومضت فجأة .. متناثرة . مستباحة على الأرض .. أمام الجميع .. دون أن يملك من أمرها شيئا ..

يهز العامل رأسه : لا تهتم .. سأنظف المكان ..

يهمس أكرم غامزا بعينيه ثانية : لقد خسرت الجولة .. يا صديقى ..

يتطلع رامز اليه . كمن يراه للمرة الأولى .. « قال مدير المستشفى : انى أرى الارهاق ظاهرا فى كل تصرفاتك .. وهذا يؤثر على العمل .. أنا أحدثك كصديق .. هل تحتــاج اجازة أخرى » ؟ !

يتصنع رامز الابتسام . تفشل محاولته ..

ـــ أظن أن العرض السينمائى .. سيبدأ عما قليل .. هل ننتظر هناك .. فى الهواء الطلق ..

يرقب فوزى أسعد بامتنان . ينتهز الفرصة . يتحركون بخطوات عجلى .. الى مكان العرض السينمائى بجوار حمام السباحة ..

« يمكن للطائر الصخاب (الباتروس) أن ينزلق في الهواء عبر آلاف الأميال ، دون أن يضرب الهواء بجناحه ضربة واحدة ، مستخدما تيارات الهواء ، المرتفعة الأمواج ، لكى يعلو بنفسه ، ويظل محمولا فى الهواء فوق المحيطات » .

(٣)

يجلسون متجاورين فى الصف قبل الأخير • يرسل القمر ضوءا باهتا • تنعكس اشعاعاته على صفحة حمام السباحة الساكنة • يرتفع صوت آلة العرض السينمائى الرتيب • يبدأ عرض الفيلم ••

يمدد أكرم ساقيه باسترخاء : شاهدت نفس الفيلم •• الأسبوع الماضى مع محمود •• انه ممتع ••

يهمس لفوزى : يعالج مشاكل جنسية •• بشكل ساخر ••

تجلس أمام أكرم فتاة الكاونتر بجوارها عجوز يتناول زجاجة كوكاكولا •• يتأملها أكرم •• « ليست من النوع الذى أفضله •• مسكين رامز أم غبى ؟ ! أراد أن يكون أمامها فارس العصر الوحيد •• ففشل فشلا ذريعا •• نتيجة تصرفه الصبيانى •• يجب أن يكون محنكا حتى يحكم على المرأة من النظرة

الأولى .. تقديرى أن هذه الفتاة لها عشيق .. عيناها لاتحملان ذلك النهم الأنثوى المرغوب .. عيناها مرتويتان » ..

يضـع العجوز زجاجـة الكوكاكولا على الأرض بجوار كرسيه . يمد الجالس بجوار أكرم يده . يختطف الزجاجة . يتجرعها بسرعة . يعيدها ثانيا فى نفس مكانها السابق ..

يتهامس الفاعل مع زميل له . يضحكان بصـوت خافت ترقبا لمـا سيحدث ..

يميل أكرم على أذن فوزى : حتى الأجانب .. يهزرون !

يبتسم أكرم . فاللعبة مسلية : « قالت زوجتـه : لمـاذا لا تكون جادا .. كبقية عباد الله .. دائما تهزر ..

ــ هكذا خلقنى الله .. هل يضايقك مرحى ؟ !

ــ لا .. ولكن ..

قاطعها : يكفينا جديتك ..

لحظـة صمت .. أنت تعرفـين .. لولا دعابـاتى .. لمـا أتيحت لنا فرصة التعارف .. ونحن طلبة » ..

يتحسس العجوز المكان بجواره . يلتقط الزجاجة . يرفعها لفمه .. يرفعها أكثر لأعلا .. ينزلها . يحملق فيها . يهز رأسه . محاولا أن يفهم . يسقط يده ثانية بجواره . بحثا عن زجاجته

الحقيقية .. فربمــا اختلطت بأخرى فارغــة .. يكتشف عبث محاولته .. يهز رأســه دهشا . يخبر الفتاة بما حــدث .. تنظر وراءها . تضبط الزميلان يبتسمان .. تخمن ما حدث .. تشير لهما متهمة اياهما . ينفجران بالضحك .. تضحك الفتاة معهما .. تشرح للعجوز : انهما .. انهما ..

يفهم الرجل . يلتفت اليهما متورد الوجه : كنت متأكدا أنها ممتلئه .. كنت متأكدا ..

يضحك أكرم . يقول فوزى : أظننى سأنتظر على حمــام السباحة .. الى أن ينتهى الفيلم

ينهض أكرم : سأذهب معك ..

تترقرق الألوان والظلال . تتداخل . تتماوج على سطح المــاء . يخيم الهدوء . ينتشر فى الجو أريج زهور طازجة . يجلسان . يعلق فوزى : انى أحسد هؤلاء الغربيين .. يناقشون مشاكلهم بوضوح دون خجل ..

يتنفس بعمق : اننى مقتنع تماما بأسلوبهم فى المصارحة .. لكننى لن أتبعه أبدا .. خاصة فى مسائل الجنس ..

ـ الوضــوح .. أول طريق معرفــة الذات .. لهــذا تقدموا ..

يشعر أكرم ببعض التعب ، يمدد ساقيه ثانية للامــام ..
« قالت الزوجة : أنت دائمـا متفتحا مع الغير .. أما معى .. فكتاب مغلق ..

مداعبا : أنت تحفظينى .. عن ظهر قلب » ..
يئن فوزى : لقد سئمت الحياة هنا .. لم أعد أحتمل ..

« قـالت كريمـة : علاقتى بك .. جعلت حيـاتى هنا محتملة ..

يستعيد أكرم وجهها العريض ، غمازتيها الآسرتين .. قالت متأملة : لمـاذا أضعنا سنة كاملة .. قبل أن تتوطد علاقتنا ..

ـ كل شيء يجرى بحساب ..

ـ عندما يقترب موعد رحيـلى .. لا أطيق البعد عنك

ـ أنت مجرمـة !!

ـ أفعل المستحيل من أجلك ..

ـ أنت مجرمـة !!

ـ لو أشرت لى فى أى لحظة .. سأهجر المستشفى .. وخطيبى .. وأتبعك الى آخر الدنيا ..

ـ كان جنونا أن تطرقين بابى .. وسط ضوء الصـباح الباكر .. دون أن تخشى أحدا ..

ـ انتهت ورديتى الليلية •• وأنا أفكر فيك •• اشتقت فجأة الى رؤياك • ففكرت •• أنك وحيد بالمنزل •• فلم لا أراك ؟ !

ـ لكنها مخـاطرة ••

ـ أظنك تستحق » ••

يردد فوزى يائسا : لن أجدد عقدى ثانيـة •• لن أعود باختيارى ••

يتمتم أكرم مواسيا : ومن لا يفكر مثلك ••

« طرق باب الحمـام • فتحه برفق •• كانت كريمـة فى البانيو •• تتألق عاريـة • مثيرة ، تحت المـاء •• نظرت اليه برجاء : اغلق الباب ••

تصلبت وقفته •أثاره انكماشها ••

ـ أرجوك •• ليس فى الحمام •• !

ضحك باستهزاء • بدأ ينزع ملابسـه • اقترب منهـا : ما أنسب الحمام من مكان » !

يخبط فـوزى المـائدة بيده : سأعـود نهائيـا •• ان شاء الله •• الى سوهاج •• لأستقر •• لأفتح عيادتى الخاصة ••

كمن يحدث نفسه : ترى .. لمــاذا يقبل الانسان .. أن يعذب نفسه بيده ؟ !

يبتســم أكرم : من أجــل المــادة .. أو المصلحــة .. أو لأسباب مختلفة ..

تتسع ابتسامته . تتحول الى ضحكة متهكمة : المسألة .. دائما .. رهن باختيارك !

— باختيارى .. هه ؟ !

يتمخط فوزى بشدة فى منديله : بدأ الأمر باختيارى .. ربما .. وقتها فكرت .. بدلا من عملى الروتينى كطبيب باحدى الشركات .. وككاتب اجازات للعاملين .. فكرت .. فلأمارس الطب لفترة فى احدى البلدان .. وآكون مبلغا من المــال .. أحقق به حلمى .. فى عيادة خاصة ..

يضرب فوزى الهواء بقبضته : وبدلا من فترة وجيزة .. لا طب ولا يحزنون .. وبدأت أفقد الرغبة فى أى شىء ..

— لكن .. هل ستعود حقا .. ولن تجدد ثانية ..

— نعم .. لن تمنعنى قــوة على الأرض .. سأعــود باذن الله ..

ينظر فى ساعته فجأة : سأصلى المغرب .. قبل أن يضيع وقتها

ـ انتظر .. سأصلى معك ..

ينهضان . يفرش فوزى جريدة يومية معه على الأرض . يتجهان للقبلة .. يؤم فوزى الصلاة . يرتفع صوته مكبرا ..

« هذه البلدة ملعونة .. ستحل علينا اللعنة » !
حكمة من التراث القديم

(٤)

ينكمش رامز سلطان وحيدا فى كرسـيه . ترتفع قهقهات الجالسين حوله صاخبة ، مغردة .. يختلس النظر اليهم .. لاشك أنهم سعداء .. والا فلماذا يضحكون ؟ !

يباغته حلم الأيام الأخيرة ، المتكرر .. « زاره أبيه المقعد فى منزله . فتح له أخوه الصغير الباب . دخل الرجل زاحفا على يده ، جارا بقية جسده : السلام عليكم .

كان يعرف أن أبيـه مات منـذ فترة طويلة . لذا صرخ مرعوبا : ماذا تريد ؟

فكر لوهلة .. ان زيارة المتوفى لمكان ما .. تعنى أنه سيجر منه آخرين للعالم الآخر ..

تطلع الأب اليه طويلا . لم ينطق .. ازداد خوف رامز : أرجوك .. لا أريدك الآن فى بيتى ..

تربع الوالد فى مدخل الشقة . لم يتحرك .. اضطر رامز لحمله . أخرجه من الشقة عنوة . أغلق الباب . رجع مطمئنا الى

الداخل .. اكتشفه رابضا هناك .. من فتح له ؟ .. من أدخله ثانيـــة ؟

حمله تلقائيا بهلع . اندفع به من باب الشقة .. رماه بكل ما يملك من قوة . طار الرجل . تدحرج على الدرج . سقط فى بير السلم .. أغلق رامز الباب . تسمر وراءه غير مصدق » ..

يشعر بجفاف حلقه . تعبث يده فى جيب بنطاله . يخرج حبة مهدئه . يتناولها .. « قال مدير المستشفى : أنا أحـدثك كصديق .. هل تحتاج اجازة أخرى » ؟ !

تتسارع دقات قلبه .. يتذكر لقاءه ذات مرة مع محمود عبد الكريم : اننا نعاني هنا .. من مشاكل كثيرة ..

ابتسم محمود : وهل يعاني من يعتبرون أنفسهم محورا للكون .. من شيء ؟ !

ـ ان المشكلة الأساسـية تكمن فى عدم الأمان .. فلو طردت من هنا .. لأى سبب من الأسباب .. أين أذهب . لقد اعتدت الحياة هنا ..

ـ هالك أن تعود لبلدك .. حيث أسرتك .. والا لمـاذا تعمل هنـا ؟

ـ صـدقنى .. لا أعرف لمـاذا أجمـع النقود .. كل

ما أفكر فيه أن أزيد رصيدى •• ورصيد الأسرة من المال •• وأن أنسى أيام الفقر الماضية ••

لحظة صمت : لم أجد مكانا شريفا أضع فيه أموالى •• وأكسب منه بشرف » ••

تنعكس ألوان ناصعة ، متداخلة ، من شاشة العرض السينمائى • تتوهج • تومض فى عينيه • يعاوده الحلم ••

ترى ما تفسيره ؟ ! •• تقفز اليه صورة أخته •• سألته فى رسالتها الأخيرة من البحرين : « أستحلفك بالله •• أن ترد على •• هل ما زلنا أخوة ؟ •• أم آن الغربة حولتنا الى وحوش ضارية ، يجهل كل منها الآخر ؟ !

صدقت الأخت •• منذ سنوات طويلة تزوجت • لم يحضر زواجها • ثم سافرت مع زوجها الى البحرين ، فكتب لها مهنئا •• من يومها انقطعت بينهما المراسلات •

« سأرسل لها برقية •• أطمئنها •• وهى وسيلة سهلة للرد •• نعم سأرسل لها برقية »

يحدث رامز نفسه • يعتدل فى جلسته • يتابع مشاهد متفرقة من الفيلم •• حفل صغير فى منزل • يحضره جمع من الرجال والنساء •• يشتركون فى لعبة ما •• « قالت زوجة فكرى : هل تشترك معنا ؟

نهض : طبعا .. طبعا ..

بينما رفض كلا من فكرى ومحمود . ظلا فى مكانهما يتبادلان حديثا جادا .. تحلق وسط الحاضرين حول المائدة .. سامية (كمضيفة) ، أكرم وزوجته ، زوجة محمود ، وفوزى وزوجته ..

وضعت سامية كوبا زجاجيا كبيرا على المائدة . غطته بورقة كلينكس . أسقطت قرشا فوق الورقة فى منتصف الكوب تقريبا .. ضحكت بدلال : سأبدأ .. سأفتح الطريق ..

خرمت الورقة بقلم فى يدها . مدت يدها لأكرم بالقلم .. علقت زوجة محمود : كن حنينا يا دكتور أدخله على مهل !

قهقهت زوجة أكرم ، بلهجة ذات مغزى : صدقينى .. ليس خبيرا .. أنا أدرى ..

استمرت اللعبة التى تفضلها النساء ، لما تتضمنه من تعليقات لاذعة ، جنسية أحيانا .. خاصة عندما يوقع الجزاء على من يتسبب فى اسقاط القرش فى الكوب .. ويشارك الجمع فيه مهللين ، فرحين ..

جاء الدور عليه . مد القلم . ثقب ثقبا . تهرأت الورقة . تمزقت . سقط القرش فى قاع الكوب الفارغ . انفجر الجميع ضاحكين ..

ـ لم يعرف •• كيف يدخله ••

ـ لم يتحسس المكان أولا ••

ـ حكمنا عليك ••

لم ينصت • تحنطت على وجهه ضحكة كريهة •• نبضت حياته • تجسدت أمامه ، على بقايا الورقة الممزقة •• بكل ما فيها من فجوات لا يقدر على حصرها • أو رأب صدعها ••

يهزه هدير الضحك حوله • يتلفت خجلا •• تنبسط على الشاشة ، أرض خضراء ممتدة • يلتمع عند الأفق قرص الشمس الذهبى •• « كتب أخيه : منذ شهور طويلة •• لم تصلنا أى رسالة منك • لمـاذا نسيتنا » •

« لمـاذا نسيتهم ؟ •• لم أنسهم طبعا •• لكنهـا ظروف المعيشة الصعبة » ••

« صاح فوزى يائسا : لمـاذا تغيرنا •• أشعر انى بدأت أشيخ ••

ـ النقود •• المـال •• ألا تظنها تغير ؟

ـ المـال يجعل الانسان فى البداية ينسى كل شىء

ـ انى أستمتع حتى الآن بعد النقود •• أذكر أول راتب قبضته هنا •• دخلت حجرة النوم •• أغلقت الباب وجلست

على السرير •• أحصيت النقود •• مرة •• ثم مرات عديـدة غير مصدق ••

ــ من هنا نبت التغير •• منذ سنوات •• كنا كلنا فقراء •• ثم عرفنا طعم النقود •• وبدأنا نفكر بالألوف ••

ــ وبذلك انعزلنا عن كل ما حولنا •• لقد بدأت أنسى كل شيء ••

ــ عندما ينتابنى الضيق •• أمشى مسافات طويلة •• ثم يشدنى الحنين ثانية نحو سجنى •• ليس منه مهرب ••

ــ اننا نعيش •• أغنياء ••

ــ كنت فى بداية سنواتى هنا •• أعتقد •• بل أؤمن •• أن هذه البلدة هى جنة الله على الأرض •• بأسى : ثم اكتشفت أخيرا وهمى ••

ــ لكننا •• سنظل أغنياء ••

يعود وجه أبيه المغضن ، الحزين ، يلح عليه • يرتعد • يغوص فى كرسيه •• فى بداية اقامته بالبلدة ، ضل الطريق ، وسط مسارب متشابهة ، طرق جانبية تمتد كأفخاخ متشابهة ، فتحت مداخلها ، لتبتلع السابلة •• غاصت قدماه فى الرمال • الأبواب والنوافذ مغلقة • تدارت السحالى وراء الأحجار ••

ندر عبور السابلة .. ثمة عمود نور مائل على شكل صليب .. ترى من يحمله على كتفيه ؟ ..

بحثت عن مخرج دون جدوى ، رجعت ثانية .. شاهدت قطعة أرض ارتفع حولها سور عريض ، تجمعت بداخلها بعض أكوام الرمـــال ..لم أرها من قبل أبدا خــلال رحلة ذهـــابى أو عودتى الى مسكنى الجديد .. لكنى سمعتهم يطلقون عليها مقابر الصدقة .. لكن أين الصحراء ؟ .. أين تبدأ .. فالمسكن على حافتها .. فلأبحث عنها اذن .. فوصـــولى اليها نجاة من حومة التيه الذى يحاصرنى ..

« قد يجن الفرد فى نهاية السنة الأولى ..
كثير من الشباب فى مقتبل العمر اصابهم الجنون
فى هذه المدينة .. آه لو تعرف كم قاسينا » ..
(من حكاوى عجوز محنك)

الجزء الثالث : انفعالات

(١)

تنتظر السيارة فى شـــارع جانبى ، متفرع من الشـــارع الرئيسى بالبلدة . يهبط فوزى أسعد . يقف على الافريز : يجب أن تنتظرانى .. سأشترى بعض الحاجيـــات .. قبل أن تغلق المحلات أبوابها .. لن أتأخر ..

يبتسم أكرم خالد : اطمئن .. لن نذهب الى بيت فكرى بدونك ..

يستدير فوزى ليمضى .. فى ذات اللحظة ، يصطدم بشاب من الوطنيين ــ يمر بجواره ــ دون قصد .. يحاول أن يعتذر .. لكن الوطنى يفاجئه ثائرا .. أغراب .. ما يحمدوا ربنا على النعمة .. نسوا ما كانوا فى بلدهم ..

يغلى الدم فى عروقه .. كان الاصطدام محكا لانفجـــار

البركان الكامن فيه .. بدلا من الاعتـذار . يقفز عليـه .. يمسكه . يحاصره بذراعيه . يكاد يشل حركته .. لكن الشاب بحركة بارعة يتملص من يديه . يسلم ساقيه للريح . يجرى بكل قوته هاربا .. يندفع فـوزى وراءه مهرولا .. يحـاول أن يمسكه .. يجتاح الغضب كيانى كالطوفان . يتدفق مصفرا . مولولا . منذرا . تجسد الشاب هدفا يجب الظفر به .. كأن فيه الخلاص من كل معاناتى . قرفى . احباطاتى . فشلى فى انقاذ الاطفال ذوى الأيام المعدودة الذين يموتون بين يدى .. ولتتقيأ أعماقى حمما مدمرة ، انتقاما من ذاتى . من لحظـات ضعفى . استسـلامى . احتمالى لحيـاة الغربة .. فى أرض قاحـلة . مجدبة . ملعونة .. حيث الموت هو السـيد يحـكم مقبرة الأحيـاء ..

يمد يده . يكاد يلمسه .. تحرقنى رغبة عاتية .. أن أخنق فيه كل الامهات اللاتى تسببن فى تعذيب اطفالهن حرقا بالطب العربى أو بغيره .. أن أطفىء فيه .. نار كل الاهانات المتأججة بالكبت المستمر ..

تتسع المسافة . يبلله العرق .. لينفجر كل شىء .. لينهار العالم .. لكنه لن يتنـازل .. سيلحق به .. ولو دفع حياتـه ثمنـا ..

يلتقط أنفاسه بصعوبة . يلهث .. اللعنة على السن .. لو كان شابا للحق به لا محالة ..

يلتف حـوله بعض الوطنيين . يتساءلون . يهمهمون .. يأكلهم بعينين يطل منهما الجنون .. يخرج اليه من الحشـد زميلاه . يسحبانه . ينقاد لهما مهزوما . يكلله شعور بالخيبة . لثقل العالم تنوء به كتفيه ..

يتساءل أكرم خالد : ماذا حدث .. فجأة وجدناك تندفع وراءه ..

يرقب ذبذبات شفتيه . لا يسـمع شيئا . الطنين يملأ الأذنين . حتى عز السمع .. حتى لو سمعه .. ماذا يقول .. ما جدوى الكلمات ؟ .

يواسيه رامز سلطان : لا يجب أن تضايق نفسك ..

يهمس أكرم : يجب أن نستوعب عادات هـذا البلد .. ونتصرف على هـذا الأساس ..

لحظة صمت .. يكمل : والا .. ستكون حياتنا جحيما متواصـلا ..

ما يزال فوزى يلهث . يرقب بعض تجمعات الوطنيين .. « على محطة الأوتوبيش » فى ميدان التحرير .. تحت الشمس

الحارقة .. وصــل الأوتوبيس . اندفعت اليه حاملا حافظـة كتبى . محاولا أن أركب ، لألحق محاضراتى بكلية الطب بعين شــمس . تداخلت الأيــدى . تشابكت . احتكت المناكب . تلاحمت الأجسام .. قرب باب الأوتوبيس . شـعرت برجل يتشبث بى .. لقد اصطدمت بـه ، دون أن أدرى .. تريثت محنقا .. كان أعمى لا يرى .. اعتــذرت اليه .. لم ينصت لى .. قال بصوت كالفحيح : تمهل يا ابنى .. اصبر قليلا .. لمــاذا تندفع بسرعة .. علام العجلة ؟ .. ترى ماذا ستفعل .. عندما يأخذك الموت ، دون دعوة .. وتكون المرة الأخيرة ؟ .. هل ستندفع وراءه بنفس القوة » ؟ !

يمشى فوزى أسعد بينهما ساهما ..

ـ لكن .. لو أمسكته .. هل كنت تقدر عليه ؟

يرنو اليه فوزى بأسى .. سامحك الله يا أكرم .. هـل تصلح السخرية لمريض ينزف ؟ !

يصــلون الى ســيارة أكرم . يركبون . يتلفت فوزى للوراء . بدأ التجمع يتفرق .. « صارحنى زميل : لى فى هذه البلدة ثلاث سنوات .. فى السنة الأولى .. أصيب وجهى بشلل نصفى .. كان فظيعا

ـ قضــاء الله ..

ـ فى السـنة الثانية .. سقطت زوجتى صريعـة حمى خبيثـة ..

ـ أمر الله ..

خفت صوت الزميل : الآن أعانى من صـداع نصفى .. مزمن » !

يتأوه فوزى : لن أظل هنا .. حتى أنهار ..

يقول أكرم : يجب أن تعالج الموقف بحكمة ..

باصرار : لن أستمر هنا ..

يتدخـل رامز ، يشارك : فـكر جيدا .. قبل أن تتخذ قرارا .. قد تندم عليه ..

يلح أكرم : فكر بهدوء .. بعيدا عن الانفعال الطارىء .. من أجل مصلحتك ..

بعناد : لن أجدد عقدى ..

بفرح صبيانى : سأعود .. لدى الآن بعض الامكانيات .. لأفتح عيادتى فى بلدى ..

يتنهد بارتياح حالم : أخيرا .. سأعود ..

« تعتمد الطيور فى حياتها اساسا على الغريزة .. ولا تحتاج كثيرا الى التفكير .. لكنها قادرة على حل بعض المشاكل البسيطة ، اذا لزم الأمر » .

(٢)

يتلاقيان بأحضان الشوق . يتنفس محمود رائحة سجائر فكرى المألوفة . يلمح بعض شعيرات بيضاء تعلو أذنيه . يجلسان متجاورين .. يراقب فكرى صديقه ، قلقا : خبرنى .. ماذا حدث يا محمود ؟ .. مم تشكو ؟

ضاحكا : أمجرد أسبوعين أبتعد عنك فيهما .. يحدثان كل ذلك ؟ !

ماذا يحكى أو يقول .. أيحدثه عن لحظات الألم الصارخ حتى الجنون ؟ .. أيكلمه عن الانصهار فى بوتقة معاناة الليل والنهار ؟ .. أم يقص عليه الرؤى والاوهام الممتزجة باجترار ماضيه ؟ .. أو فليغلف آلامه بالصمت ، ويرسم اللامبالاة ..

بسأم : أبدا .. بعض الاجهاد على ما يبدو .. وصداع مزمن ..

ـ لكنـك أخبرتنى بموضـوع الكونصـلتو •• غـدا يا محمود ؟؟

يصنع ابتسامة باهتة : اجراء اقترحه مدير المستشفى •• ليطمئن قلبه •• بأنه أعطانى العناية الكافية ••

تدخل زوجة فكرى ، برقة : أهلا دكتور محمود •• كيف حالك الآن ؟

يمد يده •• يحيى الزوجة : الحمد لله •• حالتى تحسنت كثيرا ••

« قالت الزوجة : دائما فى البيت صامت •• لا تنطق •

نظر الى جسدها الضخم • نتيجة تكالبها على الطعام : ماذا أقـول ؟

ـ قبل الزواج •• كان الحديث يمتد بيننا ساعات طويلة •• كنت تحدثنى عن أحلامك ومشاريع المستقبل ••

ـ وها أنت ترين تحقيقها

ـ لكنك تعزلنى •• تنحينى جانبا •• كأنى ••

ـ لمـاذا تشكين دائما ؟

ـ ولمـاذا لا تنصت لى حتى النهاية ؟ !

ـ من أجل هذا •• أفضل الصمت » ••

تقول سامية : سأعد لكما كوبين من الشاى ••

يومىء برأسه شاكرا : تغادرهما • يقترب فكرى بكرسيه يقول : انها المرة الأولى •• التى أزور فيها لندن •• أعجبنى فيها شيئان •• النظام •• واحترام الانسان ••

ـ عندما زرت لندن •• لم تبهرنى •• كان كل شىء كما تخيلته تماما •• وكما قرأت عنه •• بل ربما كانت أقل مما تخيلته •• أما الشىء الوحيد الذى بهرنى فعلا •• فهو المؤتمرات الطبية ••

يميل فكرى بجسمه • يهمس : هناك •• قابلت نادية ••

يسترجع محمود الماضى البعيد •• عندما رأى زوجته نادية للمرة الأولى ، فى زيارة لأسرة أحد أصدقائه بالاسكندرية • اهتمت به بحفاوة • تدفق نبع من الدفء فى أول لقاء • كانت أول فتاة يقابلها تنصت اليه •• ومن قبل لم تشغله الا الدراسة والمحاضرات • وها هى الدنيا تدخله رياضها الخفية • ازداد اقتناعا بها ، لما اكتشف أنها من أسرة ثرية • ذات جاه ومناصب •• وان لم تكمل هى دراستها الثانوية •• لكنه لم يره عيبا فى ذلك الوقت •

— قضينا عدة أيام معا .. فانبعت الماضى ثانية ..

يتورد وجه فكرى : ستجرى نادية زوجة محمود عملية جراحية فى الكلى غدا .. يجب أن أرسل برقية للاطمئنان عليها ..

— ولو اكتشفت زوجتك هذه العلاقة ..

— تذبحنى .. لا محالة !

— تذبحه سامية .. ينساب الدم . يغرق الحى .. « قالت زوجته ذات ليلة : ألم تسمع بفضيحة صديقك فكرى ..

— يكفى أنك تسمعين وتعرفين .. وتجبريني يوميا على سماع تقرير عن أحوال سكان هذه البلدة ..

— ألا يجب أن تتكلم ؟

— تقصدين .. تتكلمين .. وأنا أنصت ..

— وصل سامية خطاب من مجهول .. أن فكرى على علاقة بممرضة تعمل معه .. ألم تسمع بذلك أيضا ؟ !

— ......

— المهم أن سامية تحدته على مشهد من الجميع : سآخونك .. سأخونك كما فعلت .. مع أى من الوطنيين ..

لن أختار •• لكنى سأنتقم ••

أكملت لاهشة : كان فكرى عنيفا للغاية •• هددها بالقتل ••

مقاطعا : اتق الله •• ودع الناس فى حالهم » ••

ـ فيم تفكر يا صديقى ؟ !

يهز محمود رأسه : الدنيا •• وتقلباتها الغريبة ••

يستطرد : أتظننى أخطأت بهجر زوجتى والطفلين ؟ •• بطبيعة الحال سأقدم لها دائما ضعف ما يحتاجونه من المال ••

ـ لا أتفق معك •• كان لا يجب أن تنفصل عنها •• لقد تسرعت ••

يستمر فكرى : كما لا أوافقك على الزواج الجديد الذى تفكر به ••

ـ خلال السنوات الماضية •• أيقنت فشل تضحيتى بالاستمرار معها •• وجودها معى سيدمرنى •• أما هى فلن تتغير •• هذه طبيعتها •• أليس لى حق الدفاع عن نفسى ؟ !

عادت تدب ثانية فى خياله •• تأمر • تنهى • تتذمر • تنفعل • تصرخ • تهتز جدران البيت • تتقوض • تنهار ••

ــ يضايقنى أن أتعامل بشخصيتين •• أريد الوضـــوح الكامـــل ••

ــ فتفكر فى الزواج ثانية ؟

يتريث • يفكر •• قال العجوز الهندى : ستتزوج ثانية •• ستنجب أولادا ثلاثة ••

ــ والولدين •• ما ذنبهما ؟

ــ انى أصر على مواجهة الأمر •• لن أذم فيها •• انها كالنمرة فى حنانها على الولدين ••

تحضر الزوجة الشاى • تضع الصينية على مائدة أمامها • تنصرف ثانية ••

يتابع فكرى انصراف زوجته • كمن تذكر : صدقت •• للدنيا تقلبات غريبة !

ــ هـــل أصبحت لى طبيعـــة أخرى •• غير مفهومة •• لا أدريها ؟ ••

ــ تجرى نادیـــة ورائى الآن •• من قبـــل رفضتنى •• بشكل قاطع ••

ينسحب فكرى • تستدرجه ذكريات بعيدة •• « ناديتها • كنت أغلى : يجب أن تحترمى نفسك ••

ــ لم أفعل خطـــأ ما ••

ـ لكنك كنت تكلمين محسن •• الساكن الجديد ••

ـ وهل فى الكلام ما يضير ؟

ـ الا اذا كان يظهر اعجابه بك فى كل لحظة •• فيعجبك غزله ••

ـ لماذا تحاول أن تقيدنى باستمرار ؟ •• لست أمة أأتمر بأمرك •• اذا كنت قد طوقتنا بجميل رعايتك خلال فترة اعتقال أبى •• فلا تحول الجميل الى قيد ••

ـ ما فعلت الا الواجب •• لكن تصرفاتك تغضبنى •• بحكم ماضينا ••

ـ لست ملتزمة لك بشىء •• حريتى ملكى ••

مد يده • صفعها : ولياليا •• أيامنا

ـ ذكريات ••

بحزم : لن أتركك تفلتين لتذهبى اليه •• سنتزوج ••

قالت باصرار : وأنا أرفضك بشدة » ••

يهزه محمود : أتظننى أخطأت •

يرن جرس الباب • يفتح فكرى • يدخل ثلاثة أطباء •• فوزى أسعد ، أكرم خالد ، رامز سلطان •• يموج المكان بالتحيات والقبلات ••

« فى الطيران الحقيقى يضرب الطائر الهواء بجناحيه ليبقى فيه .. لكن بعض الطيور تنزلق فى الهواء فقط .. لأنها تستخدم تيارات الهواء .. أكثر من ضربات الجناح » .

(٣)

يشير أكرم خالد الى فوزى أسعد بخبث : لن تصـدقوا ما فعله اليوم فوزى .. فى المستشفى .. وفى المدينة ..

ينزوى فوزى . يتقوقع . ينكمش .. اعتاد أسلوب أكرم منذ زمن .. يحاول أن يثير الحيوية ، بمثل الأحـاديث حتى تطيب القعدة .. ثم ألسنا جزءا من مستنقع البلد الآسن ؟ ! .. اذا .. فليحك أكرم حكاياته عن الفقاعات التافهة ، الجديدة ، التى يفرزها العطن ، أو فليصمت .. فالأمر سواء !

ـ فى المستشفى أحرق أحدى الوطنيات بسيجارته .. وفى الطريق اعتدى على أحد الوطنيين ..

يعلق فوزى مكتئبا ، كمن يصدر حكما نهائيا : كل ما فى البلدة يثير الضجر .. لم أعد أحتمل ..

يتدخل محمود : لا تلوموا فوزى .. لا تزهقوه بتعليقاتكم ..لقد تصرف بتلقائية يحسد عليها .. أما نحن .. فلننظر الى

أنفسنا بصدق .. ألا يعتبر انفجارنا فى الشجار مع زملائنا .. وهو كثيرا ما يحدث .. ألا يعتبر هـذا تفريغا لانفعالاتنا .. وعدم قدرتنا على مواجهة أهالى البلد الأصليين ؟ !

يسيطر على الجلسة صمت ثقيل . يغرق الجمع فى بحـار التفـكير ..

يستطرد محمود ، كمن يعترف : ان تعاملى المسـتمر مع الدماء ، ومع الموت .. بحـكم عملى كجراح .. كان يدفعنى للتفكير .. فاذا أطلت التفكير .. أكتشف عبث الحياة ..

يرنو اليه رامز ساهمـا .. « الدمـاء . المـوت . عبث الحياة » .. تهاجمه ، تحاصره ملامح وجه أبيه المحنطة كمومياء .. متربعا فى عمق الشقة .. ماذا جاء يفعل ؟ . ماذا يطلب المتوفى منذ زمن ؟ . كيف يهرب منه ؟ ! .. حمـله بسرعة نحو باب الشقة . رماه بكل قوته . تدحرج المقعد على الدرج . سقط فى بير السلم ..

يعلق أكرم ساخرا : لا تفلسف الأمور بشكل مأساوى .. فهى لا تحتمل ..

يبتسم : الدنيا بالنسبة لى مقبولة ، ممكنة .. فأنا أوائم بين احتياجاتى كفرد .. وأكيفها مع الامكانيات المتاحة لتلبيتها ..

يضحك : ها أنا أمنحكم مجانا .. سر قاعدتى الذهبية « اللعب بالمتاح »

يراقب أكرم ، محمود .. الحياة عبث ، بالنسبة لك فقط .. أيها المخلوق من صخر ، نائحا بين أطلال التفكير ، العمل ، الواجب .. الحياة عبث ؟ ! .. حديث خرافة ، لأنك لم تذق رحيق المرأة المتجدد ، ولم تألف حلاوة متع الحياة الأخرى ..

يتنحنح رامز : يجب أن نراعى ظروف البلدة التى نعيش فيها .. حتى نضمن الاستمرار .. المواجهة تخلق لنا متاعب ، لا حصر لها .. نحن فى غنى عنها ..

يرتشف فكرى رشفة من فنجال الشاى . يتلذذ بمذاقه : لم أفكر أبدا فى الحياة من جانبها المقبض .. اننى أعيش لحظتى .. أستمتع بها الى آخر مدى .. لذلك تجدونى اذا دخنت أدخن بشراهة .. أنا لا أعرف الأمور الوسط ..

يشيح محمود بيده : يجب أن أوضح لكم نفسى .. يبدو أنكم لم تفهمونى .. كما يجب ..

يحملق فى الجمع : شاهدت الموت كثيرا .. فأيقنت عبث الحياة .. خاصة عندما تفكر فى الموت .. لكن ..

يشير لأكرم كى ينتظر : لكن يتعبنى جدا .. أن أعيش مع فكرة أن الحياة عبث ..

ينقل بصره بين الجمع المتطلع اليه : رغم هـذا •• أعيش حياتى بكل الجدية •• كما لو كانت هذه الفكرة غير موجودة ••

يسترخى على كرسيه مرهقا • تبدأ مطارق مجهولة الهوية تمارس لعبتها المألوفة •• هل يفلت منه زمام فكره ؟ •• تتقارب الوجوه المحيطة به • تشرئب الأعناق اليه •• تتعملق الرؤوس • تتفلطح • تتداخل • تتشابك • تزحم المكان • تحجب الرؤيا •

يسمع أكرم يتهمه : ها أنت تهرب من أفكارك أيضا •• مثل الجميع ••

« قالت الزوجة : يجب أن تنصت الى •• أن تمنحنى فرصة الصمود بجوارك •• لست الها » ••

يحك جبهته بشدة • يود لو يقتل ما وراءهما من ألم • يغمض عينيه •• الأفواه من حوله تفتح وتغلق آليا •• تتناثر الكلمات • تتصارع فى الهواء • تذروها الرياح قبل أن تصـل اليـه ••

يتسـاءل رامز ، مغيرا مجـرى الحـديث : حدثنـا عن أخبارك •• عن لندن •••

يقاطعه أكرم : حدثنا تفصيليا عن الأوربيـات عموما •• والانجليزيات خاصة ••

يقهقه : ستفيدنى هذه المعلومات جدا ، عندما أسافر ..

يبتسم فكرى : لعل أهم ما لفت نظرى فى لندن .. كما قلت لمحمود .. شيئان هامان .. هما النظام ، واحترام الانسان ..

يعلق رامز : هما جناحا الحضارة الغربية .. لذلك يتقدمون ..

يكمل فكرى : أما تكاليف المعيشة .. فلا حسد .. التصاعد مستمر ..

يهجم فوزى . يقتحم الحوار فجأة : آلا يقدم ديننا الحنيف نفس الدعامتين .. النظام واحترام الانسان .. فقط نحتاج عودة مخلصة .. الى أحضان الدين ..

يتساءل فكرى : الا تقدم الأنظمة الأخرى .. نفس الأساسين .. اذا ما الفارق ؟

يقاوم محمود آلامه . يركز تفكيره بجهد عنيف : ان كل الأنظمة تحمل فى طياتها عناصر فسادها .. لا آمل مع آى نظام لا يحترم حرية الفرد .. التى يكفلها الاسلام .. والأمثلة بالتاريخ ، والاسلامى خاصة تفوق الوصف ..

يرقب فكرى حزينا : بكل آسف •• تتكتل النظم الأجنبية •• اليوم معا بغباء •• محاولة تدمير آخر معقل للديموقراطيـة فى شرقنا العربى •• الاسلام ••

« قالت الزوجة : ماذا تظن نفسك •• أفق !

يحدث محمود نفسه •• هل كانت الزوجة تحس بضآلتها ازاء عملقتى •• لذلك كانت تريد تدميرى ؟ ••

يندفع فكرى : أريد رأيكم •• قابلت فى رحـلة العودة زميلا •• سيشاركنى فى محل أحذية •• بموقع ممتاز •• وسط العاصـمة ••

ـ بذلك نضمن أننا لن نكون حفاة يوما !

يضحك أكرم • يغير من وضع ساقيه : دائما يتحفنا فكرى بمشاريعه الغريبة !

يستفسر رامز : وهل يفهم فكرى فى الأحذية ••

ينتهز أكرم الفرصة : نوع من الجلود •• توضع فى قوالب •• لتناسب المقاسات البشرية ••

يلتفت لفكرى : وهل ستديره •• وتهجر الطب ••

ــ لا •• لن أديره •• سيديره هذا الزميل •• وللعلم •• نحن خمسة شركاء •• والدفعة المطلوبة الآن •• لدفع الخلو ••

تدخل الزوجــة حاملة فناجيــل الشــاى ، وبعض قطع الجاتوه • تذوى المناقشة • تسترخى الأجساد المرهقة ، كأنهــا فرصة لالتقاط الأنفاس ••

يحمل فكرى منها الصينية • يضعها على المــائدة • يناول كل نصيبه ••

يقطع فوزى السكون فجأة : ما جدوى أن تمتلك سيارة •• أموالا •• بيوتا •• وتخسر نفسك •

يمضغ أكرم قطعة : ما أطيب مذاقها •• ان للمسة زوجتك سحرا خاصا ••

يكبت فوزى آلامه : لم أعد أحتمل عذاب الدائرة •• لن أجدد عقدى ••

يتدخل أكرم : ومن يرغب فى تجديده •• لكنها الظروف •

ينفعل فوزى : ظروف •• أى ظروف ؟ ! •• صدقونى •• هذه الظروف من صنعنا •• نحن الآن موتى •• ندور فى دائرة المــال المغلقة •• مغمضى الأعين •• لا نرى •• ماتت حواسنا ••

فلا نشـعر .. نحن سجناء هـذه البلدة .. حبيسى جدرانها الملعونـة ..

يرتعد رامز : يعاوده الحلم . يطـارده .. هـل هو نذير سوء ؟ .. هل حكم عليه بالموت وحيدا ، فى أرض مجهولة ؟ ..

ينهض فوزى ثائرا : أستأذنكم .. أعصـابى مرهقة .. أود أن أرتاح ..

« عندما يبدأ موسم التناسل .. يستقر الطائر فى قطعة من الأرض ، تصبح ملكا خالصا له » .

الجزء الرابع : العـــودة

(١)

يتمدد فكرى أحمد على السرير ، بجوار زوجته . يغمض عينيه .. لا يشعر بأى رغبة للنوم .. « أراحت نادية رأسها على ذراعه : أخشى أن يرغب فى زوجى خلال فترة وجودك .. فأنا لك وحدك ..

نظرت اليه : يجب أن تأتى فى فترة وجوده ، لزيارتنا .. وفى فترة عدم وجوده .. حتى لا يشك بشىء ..

ــ طبعا .. أظننى أفعل ذلك ..

أناخت شعرها : أصبحت أضيق بتصرفاته .. غيابه المستمر .. وادمانه الميسر ..

صمت مطبق ..

استمرت : لولا ظروف الصعبة بمصر .. وعدم وجود من أعتمد عليه .. لهجرته من زمن ..

ـ يمكنك أن تتركيه •• وأنا أتكفل بحياتك فى مصر ••

ـ ونعيش معــا ؟ !

ـ سأزورك كلما تسمح الظروف •• فأنت تعرفين ••

مقاطعة : أعرف •• تزوجت » ••

تقلب فى فراشه • تتنفس زوجته بانتظام • ينهض • يتوجه الى شرفة تطل على الشارع الرئيسى • يدخلها • يشعل سيجارة • يتكىء على ســور الشرفــة •• يظلل الظــلام جنبات الطريق الطويل • معظم المحال أغلقت أبوابها • مصــباح معطوب فى وسط الشارع يطفىء ويضىء بانتظام • تنبش القطط صناديق المهملات • تتخاطف • تتغذى على بعض محتوياتها •• « قالت نادية : تفجعنى وحدة ضارية •• كلما شعرت بالبعد عنك ••

ـ وأنا أفتقدك كثيرا ••

ـ أنتظرك دائما •• أنتظر أن تشــير الى •• حتى ألبى نداءك ••

ـ أتمنى أن نكون معا •• لكن ••

غيرت الموضوع فجأة : ترى لو كنت تزوجتنى •• هــل كنت تخوننى ؟ !

ـ تعرفين أن الخيانة •• ليست من خصالى » ••

يجلس على كرسى بالشرفة • يضــع ساقا على الأخرى • يجذب نفسا عميقا من السيجارة • ينفث دخانها فى الهواء •• يعبق الجو بذكريات الأيام الخالية •• عادت الى البيت ، من أسيوط ، بعد غيبــة ثلاثة شــهور • مع أخيهــا • تحت رعاية جدهما • انتقلت للاقامة معهم • أفردوا لى غرفة مستقلة • كانوا يعتبروننى فردا منهم • ربما بحكم علاقة الجيرة بين أسرتينا ، أو لزمالة نادية لأختى فى المدرسة الفرنسية • أو لقيامى بكثير من المهام للأم والأب فى الأيام الخالية • أو لعلاقتى مع أخيهــا الذى يصغرنى •• أو ربما لكل هذه العوامل مشتركة أصبحت فردا من أسرتها ••

فى اليوم الثانى • بعد منتصف الليل بكثير • وقفت قرب باب حجرتها مترددا • ثمة حركة بالداخل • مازالت متيقظــة بلا شك • ناديتها بصوت خافت • فتحت باب حجرتها • اندهشت لوجــودى ••

ــ أردت أن أحدثك •• الأمر هام ••

لم تفهم • جذبها من يدها • دخلا حجرته • أغلق الباب : أخشى أن نوقظ النيام ••

جلسا متباعدين على السرير •• قال لها : أتخافين منى ؟ !

هزت رأسها نفيــا ••

ــ اشتقت اليك طويلا ••

ــ خطاباتى اليك •• خير شاهد على صدق مشاعرى ••

ــ أنت محبوبتى •• زوجتى •• رغم أنف الجميع ••

ــ سأكون زوجتك ••

ــ بل كنت زوجتى قبل سفركم •• ألا تذكرين ؟ ! •• ألم تكونى تستأذنيننى تليفونيا ــ اذا لم أكن موجودا لديكم ــ حتى أسمح لك بالخروج •• مع بابا وماما •• أو أيهما ؟ !

ــ وكنت غالبا ترفض ؟ !

ــ وكنت دائما لا تخرجين ••

ــ وتثور أمى •• وبدلا من تشجيع علاقتنـا •• بدأت تشعر بخطورتها ••

ــ لا يملك أحد اعتراض مجراها ؟ !

صارحت نادية : ظروف أبى الآن متعثرة •• ربما ينقلنـا لمدارس أخرى بأسيوط •• حيث يعمل ••

ــ سينصلح الحال •• وأنهى دراسة الطب •• وتتزوج ••

أمسك يدها فجأة : أو عند الضرورة •• سنتزوج •• قبل أن أنهى دراستى ••

ارتعشت ، اقترب منها ، جذبه عطرها المميز ، احتضنها بشدة .. أسلمت نفسها .. للمرة الأولى » ..

يطفىء السيجارة بعصبية ، يشعل أخرى ، ينهض متوترا ، يتمشى ذهابا وايابا .. يحدث فكرى نفسه : « والدى يعرف الاعتدال فى كل شىء .. أما أنا فمتطرف فى كل شىء .. حتى المدى الأخير » ..

تذكر مكالمتها التليفونية من أسيوط ، بعد أن انتقلوا اليها نهائيا .. « قالت له : افتقدك كثيرا ..

ـ أفكر فيك دائما .. وأحن اليك أكثر ..

ـ لا تدرى كم أعانى وحدى ..

ـ وأنا أعانى أكثر

ـ أتمنى أن أراك .. أشتاق ..

مقاطعا : سأراك الليلة :

ـ كيف .. وكلانا فى بلد مختلف ؟ !

ـ ستعرفين ! ،

نداؤها أقوى من كل شىء .. شلال جارف .. انزلق فى تياره العنيف ، دون تمهل ، انطلق الى محطة مصر كالجواد الجامح ،

لم يخبر أحدا .. ركب القطار الى أسيوط .. تاركا الجميع وراء ظهره .. البيت ، الأسرة ، الكلية .. المحاضرات .. لم يشرح أو يفسر .. فقط مضى ..

ينساب صوت غناء من مكان ما . يشيع فى الجو .. فى القطار أنصت لصوت المذياع المنطلق بجواره بوله .. كانت أغنيته المفضلة :

سافر فى يوم ما وعدنى   على الوصـال وعاهدنى ..
وكان وصـاله فراق ..   مـن بعد طـول امتنـاع

دغدغت الأغنية حواسه . أثارت كامن شجونه .. وجد فى كلماتها سلوى منذ فارقته نادية للمرة الأولى .. استعاد اللقاء الأخير قبل السفر . لم تجد الملاطفة . نشب الخلاف بينهما بسبب رؤيتها له يوصل صديقة أخته (سامية) ..

قالت غاضبة : أنا لا أعترض على ايصالك لها .. فهذا واجب لكنك كنت ..

عضت على شفتها السفلى .. حاول تنقية الجو : أنت علاقتى الوحيدة ..

لا صوت . ولا مجرد كلمة ..

ـ انها كأخت لى ..

التفتت اليه : سنسافر غدا الى أسيوط •• بدأ أبى يستقر في عمله •• سنلتحق بمدارس أسيوط ••

ـ لكن يجب أن تتصافى قبل السفر •• لامكان ••

ـ ينبغى أن أعد حاجياتى للسفر ••

ـ سأخرج ••

تحدته بقوة • لم يتكلم •• لم يستطع أن يكمل •• « لأبحث عن أى واحدة ! » •• حتى تستجيب له كالعادة •• كان الموقف دقيقا ••

تراجع • نهض : الى اللقاء اذن •• سنلتقى كثيرا •• باذن الله ••

لم تتراجع • هزت رأسها • مدت يدها • سلمت عليه ببرود •• دون أن تمنحه نظرة الصفاء المطلوبة؟ !

يسود السكون ثانية • يجلس • يحس أنه مقيد • محاصر •• يود لو يخرج • يتحرر • ينطلق • يتخفف من أثقاله • يطير الى مكان بعيد •• « اتصلت نادية تليفونيا من أسيوط للمرة الثانية •• اختنق صوتها بالانفعال : ننتظرك يا فكرى •• لابد من حضورك ••

ـ هل حدث شيء ؟ !

ــ سنعرف عند حضورك ••

ــ سأحضر الليلة ••

ــضرورى •• لا تتأخر •• ليس لنا سواك ••

الجميع حزانى • لكنها كانت خجلى •• قالت الأم : عمك غير موجود •• لا نعرف أين ذهب •• تبحث الشرطة عنه •• اكتشف أحد المراجعين اختلاسا بالفرع الذى يديره •• أبلغ الشرطة •• عمك غير موجود ليدافع عن نفسه ••

أسقط فى يده • تولى تهدئة الأسرة •• لم يكن يهمه براءة الأب أو ادانته •• المهم أن يجده • بحث بكل مكان محتمل بأسيوط دون جدوى • عاد للقاهرة فى اليوم التالى • حكى للوالد كل شىء بوضوح • قال الوالد رأيه • قدم له المساعدة المالية المطلوبة • رجع ثانية الى أسيوط • قضى معهم أسبوعين • شعر ــ ربما للمرة الأولى ــ أن نادية تتفانى فى ارضائه • باعتباره رجلها • ومنقذها عند الأزمات •• وعادوا جميعا للقاهرة ، دون أن تظهر بادرة أمل فى امكانية العثور على الأب الهارب ••

يفاجئه صوت ابنته سوزى تبكى • يرتفع صراخها • يجرى •يضىء النور •• يجدها خائفة • مذعورة • يحتضنها • يهدهدها • تهدأ قليلا • يميل رأسها على كتفه • تغمض عينيها •

يمددها فى الفراش ثانية • يحـكم الغطـاء حولها • يكتشف زوجته فوق رأسـه • تستفسر عيناها • يهمس : لعلهـا رأت كابوسـا ••

يضع يده على كتفهـا • يتحركان ببطء •• أى كابوس مزعج رأته الصـغيرة ؟ ! •• ظهـر الوالد فى البيت ، على غير انتظار • أعلن براءته ، وانه مظلوم • أضاف : رغم أننى كنت أتقاضى من عملى السابق أربعة أضعاف مرتب العمل الجديد •• ورغم متطلبات البيت العديدة •• الا أنى لم أختلس •• « هل كان يكذب » ؟ !

لم تمهله الشرطة • كأنها كانت تتوقع حضوره •• قبضت عليه وسط دموع الأسرة ••

« يقدم الذكر احيانا الهدايا للأنثى .. فقد يحضر لها طعاما فى منقاره .. فتفتح منقارها لتتناوله » .

(٢)

يدير أكرم المروحة الكهربائية ذات الحامل . نصفه الأعلا عاريا تماما . يرتدى بنطال بيجامة شفاف . يتحرك بحرية . بعد طعام العشاء على مائدة الطعام .. قالت كريمة فى الصباح ، أثناء تناول الطعام : أنت فنان فى الطعام أيضا ..

أشرق وجهه : أنت مجرمة !

ـ أعبدك

ـ المهم أن نقضى معا وقتا ممتعا .. أما فى وجود الآخرين ..

ـ طبيب وممرضة ..

ـ عقلك راجح

ـ أنا أعرف حدودى .. ولا أفكر بالمستحيل ..

يتفحص المائدة .. « دائما أنسى المخللات .. يعود للمطبخ .. قالت الزوجة : أنت شغوف بالمخللات .. »

ـ تثير الشهية •• وتجعلنا نزدرد الطعام كبشر ••

ـ اذن سأوفرها لك باستمرار •• ما دمت تحبها ••

يجلس على المائدة ، يبدأ تناول الطعام •• يحدث نفسه : « وهل تستطيع زوجتى أن تقدم لى دائما ما أحب ؟ •• أبدا لن تستطيع •• لا يمكن لامرأة أن تقدم ـ برضائها ـ لزوجها أخريات •• يستمتع بهن •• يهبن لحياته معنى » ••

قال فكرى خلال قعدة عائلية : وصلت للمستشفى اليوم خمس ممرضات جدد ••

علق أكرم : وضع طبيعى •• بدلا ممن انتهت عقودهن ••

أمسكت الزوجة بعينيه : لكن احداهن •• كانت معجبة بأكرم ••

اشارة خطر مؤكدة فليظهر الغضب اذن ، فالحوار شائك : دعونا من هذا الحديث •• ما رأيكم لو قضينا عطلة نهاية الأسبوع على شاطئ البحر ••

اعترضت سامية : المسافة بعيدة ••

ـ أدعوكم فى سيارتى ، واذا لم تكف •• سنستعير سيارة محمود •• اذا لم يذهب ••

يبتلع لقمة . يتجشأ .. فى البيت بدأت الزوجة الحساب :
لمـاذا غيرت الموضوع .. ألم تأكلك الممرضة بعينيها ..

ــ وهل أملك أن أمنعها من النظر ..

ــ يجب أن تحتشم .. فأنت طبيب .. ومتزوج

ــ لا يستطيع أحد .. أن يشككنى فى سلامة تصرفاتى..

وكانت مشاجرة . ارتفعت فيهـا الأصـوات . تبودلت الشتائم . تكسرت بعض الآنية . جاء فكرى ــ القاطن بالشقة المقابلة ــ يستفسر عمـا جرى .. أخبرته أن الطفلة الصـغيرة سقطت من فوق مائدة الطعام ..

يغادر المـائدة . يحمل بقايا الطعام الى المطبخ .. يغتسل يتمدد على السرير . يضـع أحد شرائط الموسـيقى بجهـاز الكاسيت . يديره . تنبعث الموسيقى هادئة ، حالمة .. « كيف أمكن للزوجة أن تأسرنى . أن تستحوذ على الطير السابح فى الملكوت » ؟

يستعيد أحداث السنة الأخيرة بكليـة الطب .. فى فترة سـأم رآها .. قمحية . بهـا كل الصفـات التى عشـقها . كيف تاه عنها كل هذه السنوات ؟ .. لم يتردد . حاول معهـا .. كان جسورا ، واثقا من نفسه .. علاقاته المتناثرة فى كل ركن ، خير شاهد على جبروته .. لكنها لم تستجب له .. حاول

أكثر من مرة . كان مآل كل محاولاته الفشل الذريع .. ثم حانت فرصة ذهبية . انفرد بها فى رحلة للكلية بالقناطر الخيرية .. قالت : دائما تطاردنى .. أشعر بك .. ماذا تريد منى ؟

اقترب أكثر : أريدك

ــ انى أفهمك جيدا .. شهرتك طبقت أركان الكلية .. بقايا لمساتك على جسد أكثر من فتاة ..

بتحد سافر : من تظننى .. لست من هؤلاء .

هز رأسه : أعرف .. أنت نوع آخر .. لهذا أريدك ..

ــ لتستمتع بى فترة كعادتك .. وينتهى كل شىء ..

ــ بل لتخرجينى من عالمى المغلق .. وتدخلينى عالم البراءة والحب ..

ــ خسارة أنت كطبيب .. فأنت ممثل بارع

ــ يجب أن ..

ــ فى احدى المحاضرات .. والدكتور منهمك فى الشرح .. ضبطتك .. كانت يدك منهمكة فى تفحص جسد طالبة بجوارك ..

ضاحكة باستهزاء : ولهذا أصدقك ..

ـ اذن يجب أن أثبت أولا استقامتى •• لكى تـكون بيننا علاقـة ••

اذا شـئت ••

يلتفت الى المنبـه ، على الكومودينو بجوار السرير •• تقترب الساعة من منتصف الليل • يطفىء المصباح • يتثاءب •• « لو تحضر كريمة الآن •• تدلك لى جسدى بيديها الناعمتين • تدغدغه •• كنت أنام فورا •• أو قد لا أنام •• المهم أن أأتنس بوجـودها » !

سأله يوما رامز سلطان : كيف تقيم علاقاتك •• أشعر أنه حتى الوطنيات هنا •• لم يسلمن من طغيانك ••

كان يعجبه دائما استغراق رامز فى الانصات له ، وهدوءه الزائد •• بسبب ادمانه المهدئات •• لذلك شرح له الأمر : أنت تعرف •• نحن هنا نمثل طبقة متميزة •• قمة الهرم الاجتماعى فى هذه المدينة •• علاقاتنا ـ كأطباء ـ مع أعلا سلطة فيها •• لذلك فمن المهم أن نختار بعناية •• حفاظا على هذه السمعة ••

أشار بيده محذرا : أنا لا أقيم علاقة أبدا •• مع امرأة من النوع الجرىء •• التى قد تطلبك بنفسـها •• فهذه تدعـو للخوف •• قد تستجيب لك مرة أو مرتين •• لكنها تلفظك فى النهاية •• وقد تفضحك ••

بصوت هادىء النبرات : أفضـــل دائما أن أكون السيد الذى يختار من المتاح •• بدلا من اغتصاب طفلة ، كما يفعل بعض الوطنيين •• وهــؤلاء المحظوظــات •• يحمدن دائمــا علاقتهن بى ••

ثم باسطا يديه : الأمر بسيط •• المهم عنصر الانتقاء •• كما قال داروين ••

يتقلب على الفراش • يشعر باقتراب النوم • يغلق جهــاز الكاسيت •• تهف صورة محمود عبد الكريم على خياله بجسده النحيف •• ترى •• هل نام الآن ؟ ••

قال له محمود : فى هذه البلدة نحن نتحول •• تتغير •• نفقد الكثير من قدراتنا ، وحاستنا • كأطباء ••

ـ لذلك أرتب مســتقبلى •• أولا •• اســتثماراتى فى القاهرة والمعادى فى أكثر من مشروع •• خاصة وأن زوجتى طبيبة مثلى ••

رنى اليه بعينين ساحرتين : أما بالنسبة للطب •• فانى أفكر جديا فى الذهــاب الى لندن للحصــول على الزمالة الطبية من هنــاك

ـ أما أنا .. فالقراءة زادى .. انها تجعل عقلى متيقظا باســتمرار ..

ـ القراءة .. أكرهها .. انى أوافق رامز على رأيه .. فى خضم متاعب حياتنا هنا .. لا نجد وقتا نرتاح فيه .. فكيف نقرأ ؟ .. كيف ؟ ! .

تظهر . تتألق . تتوارد فتيات لندن الجميلات أمامه .. يتمايلن بدلال . يتآلف معهن . ينتشى . ينام ..

« تحاول الطيور المريضة .. اللجوء الى الثقوب أو الأركان .. حيث تموت بهدوء » ..

(٣)

يفتح محمود عبد الكريم باب شقته • يتخيل أن ولده الصغير ، الشقى .. يجرى اليه • يتعلق برقبته • يسأله ، ماذا أحضر له ..

يفجعه الصمت المطبق .. اندس بين جمع الواقفين المتعددى الجنسية ، كمن يختبىء .. جاء المصعد • اندفع وسطهم • أغلق بابه الضخم • تلفت حوله • اكتشف أنه وحيد ، فى مصعد يندفع به لأعلى كصاروخ .. يضغط أزرارا لا تعمل .. يضغط بعصبية ، ولا سبيل للخلاص ..

توقف المصعد فجأة • خرج غير مصدق • هبط فى بهو رخامى واسع • تتخلله مجموعة أعمدة رخامية ، عملاقة • خال من أى أثاث • تحرك مرتبكا .. أزعجه صوت ارتطام حذائه بالأرضية .. انساب صوته ، خائفا ، متحشرجا ، كأنه لشخص غريب ، لا يعرفه : هل .. هنا .. أحد ؟ !

ما من مجيب ، عدا رجع الصدى .. جرى مذعورا على

الأرض الرخاميـة • يجذبه ضـوء شديد ، ينبعث من بعيـد أمامه •• اندفع ناحيتـه • توقف على الحافة •• الارتفـاع شاهق •• يكاد يسقط •• وجوه ممسوخة بأسفل تنتظر سقوطه بتلذذ غريب • يتراجع • يسقط فى هوة مظلمة •• يصرخ •• يصرخ •• ما جدوى الصرخات ؟ !

يتحسس بيده الحائط بجوار الباب من الداخل • يضىء المصباح • يغلق الباب •• يسـمع دقات سـاعة الحائط تعلن منتصف الليل • يحك جبهته بشدة •• بشائر صـداع ضار ، تهاجمه •• يفتح عينيه بصعوبة • يتناول حبتين مسـكنتين • يدخل حجرة المكتب • يرتمى منهكا على أقرب كرسى قابله •• استعاد رائحة الغابة القريبة • ملأت أنفه مصحوبة بضجيج •• سأل زوجته : ما كل هذه الضجة •• ما سببها ؟

جذبته من ذراعه : يبدو أن زوجـة جارنا الطبيب •• فى أزمـة ؟

انطلقا اليها فى المسكن المجاور •• كانت فى حالة هيـاج شديد •• يتدفق الزبد من فمها •• الفوضى ضاربة فى كل مكان حولها •• الأشياء ، متناثرة ، مبعثرة ، ممزقـة •• تقبض على المقص بقوة • لا تريد أن تفلت السلاح من يدها •• به مزقت • خربت • دمرت كل ما وقع تحت يدهـا •• السـتائر ، ملاءات

السرير ، الوسائد ، اللوحات الفنية .. بعض الأقنعة الافريقية .. كانت فى حالة انهيار عصبى ..

حاول تهدئتها دون جدوى ، أعطاها حقنة مهدئة .. حضر زوجها من المستشفى القريب .. ظل يضرب كفا بكف مندهشا : آخر ما كنت أتوقع حدوثه .. كانت تخفى عنى أحاسيسها ..

تتسلل أشعة الضوء ببطء من المدخل ، تبدد بعض ظلمات الحجرة .. يتأمل بعض مراجع الطب على مكتبه ، بجوارها عدد من الروايات والمجلات ،

« فى الكونغو .. تمتعت بامتيازى الخاص كجراح .. كانت الجباة تنحنى لى تبجيلا واحتراما .. أما هنا .. فكل الأطباء سواء » ..

يرفع بصره الى صورة زوجته ، يتذكر احدى ثوراتها العارمة .. « ألا يحق لى أن أجد امتيازى فى بيتى ؟ .. كانت تريدنى دائما منكمشاً .. أعيش داخل نفسي .. فى قوقعة خاصة .. لكنى لا أستطيع .. اعتدت دائما .. أن أعيش حياتى كجراح .. بوعى كامل .. لكن الثمن فادح » ..

يحس بثقل رأسه ، يسندها الى يده .. قال فكرى : كان لا يجب أن تنفصل عنها .. لقد تسرعت ..

يشعر بالضيق يجتاحه .. « هل حقا أخطأت .. بعد أن احتملت كل هذه السنين .. ثورتها الجامحة .. حساسيتها الزائدة .. محاولاتها المتكررة لاغتيال تفوقى » ..

يتوقف . يحملق فى صورتها .. « فى لحظة ما .. طفح الكيل .. كان على أن أختار .. ربما للمرة الأولى .. لأرتاح .. ان كل ما فى حياتى لم أختره .. مولدى .. اسمى .. دينى .. حتى مهنتى .. وربما مماتى .. رغم أننى أحس بيقين غامض .. أننى سأتعرف هذه اللحظة قبل حدوثها .. بوقت كاف » ..

تعبث يده بالمذياع .. تلسعه الحركة .. يسقط سأما .. مزروعا وسط الحجرة كالفأر المذعور .. لا رغبة فى مذياع أو قراءة مجلة قديمة .. يشعل سيجارة .. تنتابه رغبة جياشة للبكاء ..

قالت زوجته : امكث معى .. انى ..

لم يعرها انتباها .. ألحت : اذن خذنى معك ..

قال باصرار : سأذهب وحدى .. مكانك هنا ..

بعد يومين أرسل لها ورقة طلاقها .. ترى كيف كان رد فعلها ؟

« كيف أعود ؟ .. كيف أعود » ؟

قال مدير المستشفى . متصفحا طلب انهاء تعاقدى : لم تقض معنا فترة كافية ؟

بهدوء : أحتاج للعلاج والراحة ..

ـ سيكون الأمر مكلفا ..

أومأت برأسى موافقا .. تبسط ، ككريم يسدى معروفا : أكتب فى الطلب .. لظروف المرض الطارئة ..

فرحت : وأسافر ..

ـ بل تنتظر .. أرفع طلبك للرئاسة بالبلدة .. فيرسلون مكتوبا الى العاصمة .. يستطلعون رأيهم .

باستعجال : ما مدة الاجراءات ..

مقاطعا : لا تسألنى .. ادعو الله ..

يعود السؤال يلح عليه .. هل حقا أخطأت .. بانفصالى عنهـا ؟

يرغب أن يحدث أحدا .. ليكن صديقه فكرى .. يطلبـه بالتليفون .. سيناقشه .. قال العجوز الهندى : ستعمر كثيرا .. سترى بلدانا كثيرة .. ستنجب أولادا ثلاثة ..

يسمع الرنين المتواصـــل • يتضخم • يتحول الى مطارق ضخمة تدوى فى رأسه • تحطم سكينته • تدمره •• تنبعث دقة ساعة الحائط •• تعلن الواحـدة بعد منتصف الليل • يسقط سماعة التليفون مكانها ••

أصبحت سجينا • لا شـهية لى لطعام الا نادرا • أقتل الوقت أم يقتلنى •• أحاول أن أقيم توازنا دقيقا •• أضـع حدودا عقلية بين الأفكار المزعجة •• أجرى • أهرب • ألهث • أطـرق بابا • تصرخ أمى • لا تفتح البـاب • كل الأبـواب موصدة •• تضحك بهستيرية • تضحك • تضحك • يصفعنى ضحكها •• هل جنت أمى ؟ ! •

يشعل سيجارة آخرى • يكتشف الأولى مشتعلة بالمطفأة •• قال زميل : هـذه البلدة مهجورة •• معزولة •• كل عوامـل حياتها وفنائها تأتيها من خارجها ••

يجذب نفســا عميقا من السيجارة •• قـال بناء المقابر • شارحا نظام المقبرة : هذه الحجرة لجثث الحريم •• والحجرة المقابلة للرجال ••

ينهض مترنحا • يتحامل •• يجب أن أنظم تفكيرى ، حتى لا أفقد السيطرة ••

يرتمى متهالكا على السرير ، بملابسه الكاملة • لا يقدر على الحركة •• قال الطفل لزميلة : « تلعب معى »

وأمامه صندوق هائل الحجم من الكرتون • صنع له بابا واحدا • انزلق منه للداخل • صـاح به : انى ميت •• اغلق الباب ! •

(٤)

بين النوم واليقظة ، يسمع فكرى رنين جرس التليفون ، متواصــلا ، لحوحا . ينهض متعجلا . يجذبه الرنين المرتفع . يشده . مشاهد الحلم ما تزال تمسك بخناقه . تطارده .. « يجد نفسه فى مكان ما . غير محدد المعالم . يمسح المكان بعينيه . ينقب . يبحث عن صديقه محمود . يكتشفه آخيرا . وحيدا فى الجوار . صامتا لا يتكلم . ناداه .. لم يلتفت اليه . هرول باتجاهه .. فجــأة نبت . ارتفع جدار ضخم بينهما . من أين جاء ؟ ! .. دفع الجــدار بيديه بقوة . يجب أن يراه .. ظل يدفعه لفترة . يجب أن يحدثه . لديه الكثير ليكلمه بشأنه .. اهتز الجدار . تزلزل . ترنح . انهار .. غرق فى دوامة الأتربة . حاول أن يزيلها بيديه .. لكنه لم يجد محمود .. أين ذهب ؟ جرى فى أكثر من اتجاه .. أين ضاع ؟

يضىء مصباح الأباجورة المجاورة للسرير . تسقط نظراته على الساعة .. الواحدة بعد منتصف الليل . يجرى مسرعا الى التليفون . وضعته زوجته بغرفة الصالون حتى لا يزعجه خــلال نومه . يخشى أن تستيقظ زوجته أو ابنته .. « لعله مريض فى أزمة » ..

يصل الى باب حجرة الصالون . يتوقف الرنين .. يستند الى الباب محبطا .. يحاصره الحلم ثانية .. يقفز محمود الى تفكيره .. يفكر .. قد يكون مرضــه خطيرا حقا .. ونحن نهمله .. كما اعتدنا ..

يستدير . يعود الى غرفته . يهدىء نفسه .. فى الصباح .. سأحدثه .. سأفهم منه الحقيقة .. حتى أطمئن .. تعاوده أشتات متناثرة من الحلم . ترعبه .. « ان ما يشكو منه محمود .. مجرد معاناة عابرة .. ككل ما يمر بنا فى هذه البلدة » ..

يتمدد على السرير .. « لكن لو كان مرضه ..

ـ من كان المتحدث الليلى ؟

تسأل الزوجــة .

ـ لا أحد .. توقف الرنين فجأة ..

يقترب فكرى منها . يقول دون سابق مقدمات : سنسمى مولودنا .. محمود .. لو كان ولدا ..

تنظر اليه الزوجة باستغراب . تومىء برأسها . تتثاءب . تنقلب على جانبها الآخر . تغمض عينيها .. يطفى المصباح .. « سيكون كل شىء على ما يرام »..

يسود الظلام ..

جمهورية مصر العربية

مطبوعـات
المجلس الأعـلى للثقافة
رقـم
- ٢٨١ -

القـاهرة
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع ١٩٨٤/٢٩٦٤

ترقيم دولى × – ١١ – ١٢٢٠ – ٩٧٧